Digital © Al-Kalimah

محمد الهرادى

الشاعر والتجربة

من خلال قصائد العدد الماضى

من الاحكام المنتشرة حول شعرنا المغربى المعاصر، انفلات القيد المنطقى من زمام الشاعر، وضياع الوحدة العضوية للقصيدة، واخذها العرض الرمزى لبسط الدراما باسلوب متشنج، يحفظ بين ثناياه الطنين الاجوف فى الشعر القديم. ولئن كانت هذه الفجوات تنقص من قيمة شعرنا الذى استأصل بذرته حديثا، وبعد عناء ممل، ستزيد أزمته حدة. وستنفرج هذه الازمة عن ميلاد مدارس شعرية رخيصة المضمون والاسلوب، ناقصة التجربة، فليس ذلك سر مدى.

على انى لا أومن بعمومية هذه القضيه وبوادر الانتعاش الدرامى فى شعرنا المغربى تخلع على مجموعة من شعرائنا صفة الريادة العديدة، لتجربة الفشل الثورى فى المغرب، وحيوية الانبعاث، باتخاذهم « محورا » مجددا، يحقق للشعر نوعا من الحركية والصيرورة، وتركيبا

Digital © Al-Kalimah

أسلوبيا حساسا بمنطق التجربة المأساوية التى نعيشها، وبالتالى، خلق أسلوب غير مشحون بالمقتبسات، والمرددات، والحوار الداخلى المبثور، والتجزىء الخشن الذى يحطم وحدة القصيدة العضوية، ويهدم معمارها، الذى يشكل بالنسبة للقارىء ((أذنـــا)) متذوقة، بانسياب رشيق صادىء، وخطوات مترادفة ناعمة، يسهل عليــه المتابعـــة قــراءة واستماعـــا.

والمغالاة فى الاحكام على شعر أصدقاء نعيش معهم قد يفتقد بها الناقد مسؤولية التوجيه والاثارة، فليس كل ما ينشر شعرا ((حقيقيا)) صادقا، وليس الحكم على قصيدة لشاعر موهوب تتكفل باعطاء هذا الحكم صفة الديمومة والبقاء، وهذا ما أجده فى أحكام مثقفينا الذين يحاون أزمة النقد.. وأنا أبارك الرفيق محمد برادة أن يدوم فى اعطاء مجلتنا ((أقلام)) بحوثا نقييمية عن بوادر نهضتنا الشعرية الجديدة(1).. فالمطلوب من شعرائنا ــ بكل تواضع ــ أن يستعيضوا عن القيمـــة الصوتية للشعر الى الانصهار الكامل فى ا لتجربة، وبالمقابل. فى خلق أسلوب يبث الحقائق على مستويات مختلفة ، ويضاعف الشحنـــات الشعورية، حيث تتكامل الصورة البنائية للقصيدة موضوعا ولغـــة ومضمونـــا..

وكلنا يعرف التطور الذى حصل فى معمار القصيدة الشرقية على أيدى حاوى، وعبد الصبور، والبياتى، ولسنا نريد من شعرائنا الا

---

(1) ــ اشارة الى ملاحظته فى العدد السابق.

Digital © Al-Kalimah

التفكير فى تهدئة الهندسة الصوتية للقصيدة وعدم التلاعب بالتفعيلة الى حد تكون فيها القصيدة مشوهة البناء قلقة التركيب.

•••

على أى حال، فسأتعرض لقصائد العدد الماضى(1) على ضوء ما ذكرت باعتبار أنها من النموذج الجديد، فقصيدة ((السندباد)) لمحمد الشعرة لها ثلاث عناوين فرعية. ((مناجـــاة))، ((شبح المـــوت))، ((رؤى)) استغل الشاعر الاسطورة ككل الشعراء المحدثين كرمـــز أساسى هدفه معايشة الواقع المنهار فى حياتنا اليومية، وثورة علـــى المطلق، والقصبدة ضيعت مستواها فى الاغنية الثالثة، لانها هامت فى رومانسية، سطحية الافكار، ملونة الصور، ذات فجوات لفظية تتعثر فيها القصيدة. وقد احتفظت القصيدة فى الاغنية الاولى والثانية بتماسك يجمع بين البناء الدرامى للرحلة السندبادية، لكنه تماسك مختلق، خدش عنصر الرمز الاسطورى فى الدراما، فاستغلها الشاعر من وجه سلبى، وجعلنا نركض معه ركضا لا طبيعيا مع سياق القصيدة، لانـــه لـــم يعطها ((الداعى)) او ((العائد)) الذى يجعل القصيدة بحثا عن مجهول، يتشوق القارىء الى معرفة نهايته (السندباد)، وهذا فى رأى داعيا لكثرة الصور اللونية الباهتة التى تغمر القصيدة، ومما يجعل الشاعر ينطق بصور تجريدية تقريرية لا تنتسب الى الجو الذى تعيش فيـــه

---

(1) ــ «أقلام» : عدد مارس 1966.

Digital © Al-Kalimah

التجربة، وهذا ما أعطى للقصيدة حركة صوتية مبحوحة بعيدة عـن أسس الجمال، ولنقرأ ما اقتطفته من الاغنية الاولى :

يا بحـــر ماذا عساك بأشلائـــى تفعل ؟
بحطام زورقى الشقى .. ماذا عساك تفعل ؟
بموجـــك الهوم، بقمـــرك العميـــق .. ماذا تفعل ؟

كان بامكان الشاعر أن يكتفى بـــ ((عساك تفعل)) مرة واحدة أو مرتين، ولكنه التصق بالمحور، ورغب فى التكرار والوقوف، والاعتماد على كلمات فى البيت الثالث ذات ضخامة وجلجلة.. (بقمرك العميق) :

والتناقض فى بناء الدراما شمتت معالم الاسطورة كلها. ومـــن الانصاف أن ننقل ((مناجاة)) السندباد لنتيقن من انه ثائر سلبـــى، ولنتيقن من أن الاسطورة لم تستغل على الوجه المطلوب : لانها رمـــز الهجرة، الغربة، الهروب من الواقع المعانى :

أمطرينى اهلكينى يـــا سمـــاء
زورقـــى عش فى أرض الخـــراب.
البحـــر متاهـــات توفـــى بالعـــذاب
أكـــداس مـــن ضبـــاب ،
وضـــا المجـــداف ..
فامطرينـــى اهلكينـــى يـــا سمـــاء
البحـــر لولاك قصعـــة مـــاء
صمـــاء أنـــت !
لا الشتـــم تسمعيـــن ولا العتـــاب

Digital © Al-Kalimah

فما بال الشاعر يوهمنا بثورة سلبية تجرفنا الى المسالمة والى الوقوف أمام نتيجة سلبية تتقهقــر ازاءها العزيمة، ويتخاذل الفوران الذى عشش فى قلب السندباد، وهذا بلا شك عامل من عوامل النقص فى البناء الدرامى للقصيدة ، ولوحدتها العضوية، هل يتحمل القارىء الصمت الذى لطمه امام عبارة ((وضاع المجداف ..)) وتكرار غيــر مطلوب لما بعد ((أمطرينى..)) الثانية ، وترصيف جمل ذات صـــور منفصلة تنتهى بالبناء للاحتفاظ بالتفعلة ؟ هل يتحمل القارىء ـــ وفى فترة واحدة ـــ الصمت، وامتداد المأساة، وعلامات الاستفهام والتعجب ؟ كلا. وهذا هو ضياع الجو الواحد فى القصيدة، وبالتالى، فى فقدان البناء المعمارى المتكاثف للقصيدة .

لا أستطيع أن اقرر تأثر الشاعر بصلاح عبد الصبور باعتبار أنه شحن الاسطورة (السندباد) بايحاءات سيكلوجية فى شعره، واهتم بالخطوط الاساسية فى الاسطورة، وهى الهجرة، والقلق، أو الاغتراب والرفض، ومن صلاح عبد الصبور نقتطف هذه الابيات بين تجربته وتجربة الشاعر محمد الشعرة كدليل على أن الشعر المغربى أحــس بمأساة الانسان المعاصر المغترب عن عالمه، فيقول عبد الصبور فى ((الشىء الحزيــن)) :

أوغصـــت فى دفائـــن البحـــار
اجمعت كفـــاك مـــن محـــارهـــا
تــذكـــار !

Digital © Al-Kalimah

ويقول الشاعـــر محمـــد الشعـــرة :

ففى القرار افتش عن لآلئــك
اسليــك الكنز الثميــن مــن احشائــك
اصوغـــه عقـــدا لحبيبتى ،

يقول عبد الصبور عن الموت :

ومــد عزريــل عصـــاه
بسر حرفــى كــن .. بسر لفــظ كــان
وفى الجحيــم دحرجت روح فــلان
يــا ايهـــا الالـــه
كم انت قـــاس موحش يا ايها الالـــه

ويقول محمـــد الشعـــرة :

ويأتـــى شبح الموت يستفزنـــى :
يحبـــب العمـــر الطويـــلا
ويحـــه، اضحـــى المستحيـــل مستحيـــلا .

ويقـــول للسمـــاء :

لا الشتـــم تسمعيـــن ولا العتـــاب

تتراءى لنا تجربة الشاعرين متكاملة ، واظن ان الشاعر محمد الشعرة آخذ طريقه نحو النضج، والوعى الكامل بالتجربة الدرامية الحقيقية لانسان العصر، وقد تمكن من القبض على الزمام، فلم يبق له سوى الركوب، والتحليق ..

Digital © Al-Kalimah

على كل، فالقصيدة رغم عيوبها ــ فى نظرى ــ تتميز بأن معماريتها غير مقلدة (بالفتحة) وهى تميز شخصية الشاعر المثقف صديقــى محمد الشعرة الذى قرأت له كثيرا، وأرجو ألا يؤاخذنى لاننى كما أشرت فى المقدمة لا يمكن الحكم على شاعر من خلال قصيدة واحدة.

والاحداث أدلة، وأرجو له مزيدا من التوفيق.

•••

اما ما كتبه هناوى أ. الشياظمى فلا يعدو ــ كما يسميه النقاد ــ أن يكون ((نثرا خفيفا مزوقا)) انعدمت فيه التجربة وخاصيات الشعر، فالعنوان يدفعنا نحو ((نتيجة)) المجهود ، أو بعبارة اخــرى يسطــر ((الفشل اللذيذ)) الذى تحملته تجربة الشاعر ، فالرحلة كتعبير درامى فقدت حيويتها فى هذه القصيدة، وكأنها انتزعت نزعا من قاموس بدون عناء التجربة، فوجد الشاعر نفسه يجتر تجربته الفاشلة، وهو أسلوب لا يعتمد عليه فى ((التنفطية)) لانه مؤطر فى تصميم مسبق، وبهذه الطريقة يصيب القارىء دوارا، ويلف مع الشاعر من زاوية الاحساس المتقلب كما فى القصيدة، ان كانت قصيدة..

وأنا لا اريد أن أشك فى ثقافة وشاعرية هناوى، فقد التقيت بــه كثيرا على صفحات الجرائد والمجلات (!) وانما اريده ان يسطر فى عقله التطور الكبير فى مستودع الشعر العربى فى الشرق الذى لم نتأثر منه سوى بالالفــاظ المستهلكــة ، والعناوين الباهرة . !

Digital © Al-Kalimah

القصيدة تتلاعب فيها التفعلة كحركات لاعب «السيرك» ، وهى توقفك ــ بعد جريان ــ على غرة حتى يكاد يلتطم وجهك بالحائط ، ثم ترمى بــك بعيدا الى رومانسية حالمة تناجى مفاتن المراة، واعضائها الجنسية،

شاعر اليوم يجب أن يكون عارفا بمعظــم النظريـــات النقديـة والادبية وأن تكون له معرفة بعلم النفس والاجتماع والفلسفة .. لانــه يثير المشكلة الانسانية بجميع ابعادهـــا، والشعـــر أقـــوى تاثيـــرا، واكثـــر عنفـــا ..

ومثقفونا الثوريون واعون بواقعية التجربة فلا تنفــرد مثـــل هذه المشاكل المطبوخة باذهانهم فقط ..

لى على القصيدة أحكام كثيرة ، ولكنها ليست بالاهمية التـــى تسطر، وكل ما أرجوه أن يكون شاعرنا مستنفدا طاقته فى استيعاب نفسه وواقعه أولا، وهذه مهمة صعبة ولا شك، ومدارس الشعـــر البيروتية والقاهرية والبغدادية تغزو عقول مثقفينا الذين هم فى حاجه الى ارتواء ثقافى حقيقى، يصور أزمتنا المعاشة.

ومرة أخرى أرجو من رفيقنا محمد برادة فى بحوثه التى يشرع فى كتابتها أن يكتب عن «بعض» شعرائنا الشباب المزوبين كنموذج حى الخلق الثورى فهم ــ على حد تعبيره ــ «أصدق» وعودا .

محمد الهرادى

Digital © Al-Kalimah

محمد بنميمون

بحر بلا موج

تظل تجر كَخلف خطاك شمس اليوم .. تستجدى
سماء ما بها ماء ولا سحب
وتلثم بابها الفضى ... ترتقب
ربيعا طالما شحت به الحجب .
وتمسى كى يحط الليل حملك فارغا عندى
ببعض من خيوط الشمس ، تنسجها فتنسينى ،
وتروى اذ يكفن عشنا الطينى ،
غشاء المحل والسهد :
حكايا عن أبى زيد ،
وترقى صهوة الدخان والوسن ،
الى فردوسكَ العلوى ،
ويبقى الجوع عبر صغارنا يعوى ،

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

وينخر اعظما تذوى ،
بلا قبر ولا كفن ...

ـــ

ويصمت ... تستحيل دماؤه دمعا
فينتحـــب
ـ أيبكى كالصفيراب ؟ ـ
تفجر فى القرارة منه سيل وجوده المسفوح
فتقطر مثلما اتصهر النحاس حشاشة من روح
تسيل على الشفاه جنائزا :
ـ الدمـــع لا يجدى
ولكن هل أدير الشمس .. اعصر زيتها وحدى ؟ !
وخصرى فى السلاسل ، والعروق تذوب فى القيد
يصول صريره المبحوح
فيهجـــع كل ما فى البحر ..
اين الموج والصخـــب
يبث الغيـــم سر الخصب والمرعى ؟

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

صالح الاشتر

الالتزام فى شعر نزار القبانى

عندما زار المغرب الشاعر العربى السورى الاستاذ نزار القبانى اتاح له فرع كلية الاداب فى تطوان لقاء ادبيا مع الطلبة ، جرى خلاله حوار ممتع ، فقد واجه الطلبة شاعر الحب والمراة بأسئلة صريحة اجاب عنها بكثير من البساطة والعفوية وكان بين الاسئلة سؤال عن الالتزام وموقف نزار منه ، وعن سر قصر شاعريته على المراة واشيائها ..

واجاب شاعر المراة المبدع بان المراة نصف البشرية ، واهتمامه بها كانسانة تتمثل فيها اعمق الابعاد الانسانية من نحو ، وهى من نحو آخر مصدر من مصادر الجمال الفنى كالطبيعة ، اما موقفه من الالتزام فهو يرفض ان يرتبط الفنان بعجلة الدولة ويردد

Digital © Al-Kalimah

كالببغاء الحانا ليس لها رصيد فى اعماق ضميره ، على انه فى انتاجه الاخير يرى نفسه ملتزما من خلا لاغانيه للحب والمـراة ، فقصيدته (حبلى) صيحة تحذير للفتاة كيلا تضل بها القدم فتنساق وراء الكلمات الحلوة حتى تجد نفسها وجها لوجه امام نذالة من اغواها وسـلب منها اعز ما تملك وزرع فى احشائها جنين الاثم والعار ، وكذلك قصائده فى (الحب والبترول) و (صوت من الحريم) و (جميلة بوحريد) وغيرها وغيرها ..

وحديثى هذا محاولة لتفصيل الكلام على نزار القبانى ، فى ضوء الاتجاه الالتزامى الذى اصبح يمر انتاجه منذ اصداره ديوان (حبيبتى) حتى اليـوم .

لا ريب فى ان هناك تطورا خطيرا فى نظرة نزار القبانى الى المراة فقد كانت صورة المراة فى دواوينه القديمة ، ونجاحه فى دواوينه الاولى ، تقتصر على الجانب الغريزى منها ، وكانت «المراة ذات الجسد الاكول والشهوة المولولة العارمة» على حد تعبير الناقد اللبنانى ايليا الحاوى هى التى تشغل وحدها شاعرية نزار القبانى التى كانت تحوم فى شبق وفهم مسعور حول فجوة جورب نسائى ممزق لتتلصص فى مراهقة مفضوحة على ساقى امراة طائشة الجلسة ، وتسـترضع الشهوة منهما لتسكبها عصيرا ناريا فى صور انيقة مهتوكة العفاف ..

اما اليوم ، ومنذ صدور ديوان حبيبتى ، فان شاعـرية نزار القبانى تقدم لنا صورة اخرى للمراة ، تهتم بالجانب الاجتماعى عـن حياتها ، وتحاول ان ترفعها فوق نداء جسدها وعبودية غريزتهـا ،

Digital © Al-Kalimah

وتجملها تنطق بصوت حقيقتها الانسانية ، وتقذف بها فى قلب المعركة التى تخوضها امتها العربية للخلاص من نير التقاليد الجائرة وحكم الاقطاع والاستعمار ، وتشعل فى دمائها نار الثورة على حيوانية الانسان الذئب وبهيميته !

قبل خمس سنوات كان الوسط الادبى فى سوريه العربيه — موطن نزار — مشغولا بالحوار حول قضية الالتزام وموقف الفنان منها ، ويومذاك كتبت مقالة عن (المراة فى شعر نزار القبانى) قلت فيها :

هل يمكن ان ينقلب نزار القبانى شاعرا ملتزما ؟ نزار القبانى الشاعر الفنان الجائع الذى منح المراة الانثى ، المراة الجسد ، كل فنه وابداعه وجوعه .. الشاعر الذى هتك عفاف الصورة الغزلية فى الادب العربى ، واصبحت دواوين شعره تنام فوق الوسائد الخالية ، تداعب احلام المراهقين والمراهقات ، نزار الذى يغنى عند كل شرفة، وينصب حبال اغوانه ليصيد كل حلوة ، والذى لا يفتا يفاخر ويباهى :

« انا شاعر حب جوال
تعرفه كل الشرفات
تعرفه كل الحلوات
عندى للحب تعابير
ما مرت فى بال رواة .. »

مثل هذا الشاعر اذا حاول ان يلتزم ، هل يفقد لحنه الاصيل، وتضيع اوتار حنجرته فى غناء الحان قد لا تلائمها ؟

Digital © Al-Kalimah

اطلقت هذه التساؤلات قبل خمس سنوات ، يوم لم يكن فى ديوان نزار الاخير «حبيبتى» غير قصائد ثلاث يموج فيها الاحساس الاجتماعى الجديد الذى بدأ نزار يلتزمه فى غنائه المراة :

القصيدة الاولى «صوت من الحريم» وهو صوت المراة الشرقية المتمردة ، حسناء القصور والحريم التى استيقظت بعد طول نوم — فرات استثمار الرجل لجسدها ولعبه بعواطفها وشهوته المسعورة ليجعل منها دائما «محظية جديدة» يدفنها وراء جدران الحريم ففرت من سجانها ، وسخرت من طريقته تلك فى حبها :

«تريدنى
محظية جديدة
تدفنها وراء جدران الحريم المزمن
اما انا
فاننى ابد شيا مستثمرى عن رجل يحبنى !
وانت لا تعرف ان تحب ... ان تحبنى
فانت غاوى تحف
ميدانك العيون ، لا ما وراء الاعين !»

والقصيدة الثانية «جميلة بوحيرد» البطلة الجزائرية التى تصور نضال المراة العربية وصمودها الرائع فى وجه جلاديها ، وهى قصيدة تعيها ذاكرة الامة العربية لانها اغنية البطولة لجانب من جوانب

Digital © Al-Kalimah

النضال الثورى الذى شهدته الجزائر العربية قبل ان يتم لها النصر العظيم •

«الاسم جميلة بوحيرد
رقـــم الزنزانة تسعونا
فى السجـــن الحربى بوهران
والعمر اثنان وعشرونا ...
ابريـــق للماء وسجان
ويـــد تنضم على القرآن
وامـــراة فى ضوء الصبح
تسترجع فى مثل البوح
آيـــات محزنة الارنان
من ســـورة مريـــم والفتح !»

واما القصيدة الثالثة فهى «الحب والبترول» التـــى انصتت اليهـــا الجماهير المغربية عندمـــا كان نزار يلقيها بنفسه واعصابـــه فتثير حماستهم وتضع امام اعينهم جراح الامة العربيـــة ومأساتها الدامية فى فلسطين ، والدماء الحارة ما تزال تشخب من « اجســـاد من صلبوا على الاعواد فى يافا وفى حيفا وبئر السبع » •

وقصيدة الحب والبترول هى القصيدة التـــى كان الجمهور المغربى يطلبها من نزار فى كل حفل شعرى اقيم له فى الرباط ومراكش وفاس والقصر الكبير وتطوان وطنجة وكانت صدور السامعين تغلى

Digital © Al-Kalimah

بمزيج من العواطف عند سماعها ، لان الشاعر يلمس فى قصيدته الوتر الحزين حقا فى نكبة امتنا العربية فى فلسطين المغصوبة !

هذه هى القصائد الثلاث التى كانت تشع بارهاصات التطور الذى اصاب شاعرية نزار القبانى فى نظرته الى المراة ، فمنذ ذلك اليوم نشهد نزارا يختار لقطاته الفنية لتصوير المراة من زوايا ملتزمة جديدة ، تجمع المراة بمثل اعلى ، وتجندها فى سبيل قضيته ، ومنذ ذلك اليوم اصبحت قصائد نزار فى المراة ذات طعم جديد ، احس به كل من عرف شعر نزار ثم استمع الى قصائده الاخيرة (غرناطة) و (حبلى) و (اوعية الصديد) ! ان الفرق بعيد بين المراة الانثى (ذات الجسد الاكول المولولة العرمة) الانثى العارية التى تطل من دووين نزار القديمة الاولى (قالت لى السمراء ، وطفولة نهد وغيرها) بفمها النبيذى وشفتيها الجائعتين وضفائرها الطائشة ومفاصلها الملتهبة ونهديها السعيريين .. بين هذه المراة التى لم تكن لتخجل من ان تقول فى ثورة بهيميتها وهياج غريزتها :

مجنونة من مر عهد شبابها لم تلثم !

وبين المراة الانسان ، المراة النظيفة التى اصبحت تدرك ذاتها، وتعى حقيقة وجودها، وتعرف دورها العظيم فى بناء امتها ومجتمعها ، فاذا هى فى قصيدة (غرناطة) فتاة اسبانية تختصر فى ملامحها حكاية الامة العربية فى الاندلس ، حتى اذا عانقها الشاعر لم يعانق فيها الانثى الجميلة المشتهاة ، بل :

عانقت فيها عندما عانقتها
رجلا يسمى طارق بن زياد

Digital © Al-Kalimah

واذا هى فى قصيدة (حبلى) انسانة تتفتح مداركها أمام نذالة الحب الاثم وتدرك أنها ضحت فى سبيل حبها لتقف مرتاعة أمام خديعة صاحبها الذى أصبح يتهرب منها بعد أن خلفها ضحية الاثم والفضيحة والعار، والحق أن قصيدة (حبلى) درس اجتماعى جدير بأن تتعظ به كل فتاة تسير فى طريق الضياع، لتصحو من ضلالها وتعرف الى أين تقودها أقدامها ، وقد استطاع الشاعر نزار ان يبلغ فى تصويره لمأساة (الحبلى) درجة رفيعة من الفن ، ففيها لمسات رائعة حقا من الصدق والواقعية والجرأة فى التعبير، وفيها حس أخلاقى اجتماعى ظل يحوم حول قمة الفن ، ولم ينحدر نحو حضيض الوعظ السافر والارشاد المكشوف ..

لقد أصبح نزار يعالج من خلال اغانيه للمرأة والحب مشكلات كبيرة ، مشكلات اجتماعية وخلقية خطيرة، يعالجها نزار بجرأة وعنف وصدق، فيهز بأغانيه الضمير العربى، ويضعه أمام الحقيقة، حقيقة المرأة العربية التى استيقظت بعد عصور من الجمود والنوم وعرفت أن لها فى مجتمعها وظيفة كبيرة ، وليس الحب والمخدع هما كل وظيفتها ، ولن تريد بعد اليوم الى ما وراء القضبان فى قصر الحريم، فقد فتحت أعينها على النور ، ونفضت عنها اوهام التخلف، ووقفت الى جانب الرجل لتسهم فى بناء المجتمع العربى الناهض الجديد، وتؤدى بكل جدارة رسالتها الانسانية العظيمة !

هذا هو نزار القبانى فى أغانيه الاخيرة : لقد أصبح يغنى الحب والمرأة فى أغلب شعره غناء ملتزما ، فيؤكد لنا ما يطرق من مشكلات

Digital © Al-Kalimah

مجتمعنا العربى المعاصر أن الشاعر الفنان لا يمكن ان يهرب الى الابد من مسؤوليته الاجتماعية ، او ان يهدر طاقاته الفنية هدرا رخيصا لا صلة له باحاسيس امته ومآسيها ! وهو — فى الوقت نفسه — يؤكد لنا باصالة اغانيه الملتزمة وتفوقه وابداعه فيها ان الالتزام الاجتماعى غير الالتزام والفرض والقسر . فالقصائد الجديدة لم يفرضها احد على نزار من الخارج، بل هو عمد الى موضوعاتها من داخله، وبدافع من ضميره وحده، ومن اهتمامه بالوجدان الجماعى فى امته، واحساسه بواجبه كفنان أمام مشكلات الواقع العربى المعاصر.

لقد كان لتجاوب الجمهور المثقف فى المغرب مع الجانب الملتزم من شعر نزار القبانى، ونجاحته فى القصر الكبير وفى تطوان، ذلك التجاوب الرائع الذى ادهش بصدقه وحماسته وعفويته الشاعر نفسه ، كان تحية مغربية خالصة للشاعر المشرقى الضيف فى خط سيره الشعرى الجديد.

صالح الاشقر

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

محـمـد الـخـمـار

قصيدة

يطل طريقك الممتد عبر الافق نحو الظل والماء
على دنيا يموج العشب فيها مرتمى ورد وانداء
فتمضى — ام خيال لاح فى الليل ؟ —
تسمع فى الدواخل : لا تعد للخلف ، مهما احتدت الريح
تشد رداءك الصوفى ريح الصحب والاهل
ودوى خلف خطوك : عد ، هتاف الرعد والمطر
ونادت من ورائك : عد — كصوت الماء ، فى شوق وفى حزن —
حقول الارض انتمشى ، نداء الام للابن .
تضيع الخلف والقدام تغدو فى قتام الدرب من ملح ومن حجر.

•—•

وراء الخطو ظل الجدب ماتت فى القرى اقدام ساريه
تغور الى قرارته الرحاب غفا المدى فيه

Digital © Al-Kalimah

فلا الغدران تنبىء عنه غيذى الماء فيهــا
لا الجذور تموت لا الزرع ذوى فى كف جانيه
ولكن الاسى فى العين ينبىء اذ ترود الافق
اذ ترنو الى أعلى تنادى الله : غيثك الميمون
يــا رب الثرى والطير والابار والشجــر
واذ ترنو لبطن الارض فى خوف وفى الــم
كأن لها جنينا نــام فى الرحــم
كأن الزارعين الارض أول مرة القوا بها الزرعا .

•—•

وعند الافق ماء البحر ازرق كالسمــاء ، اتيته وجلا ، وميناء
ارف به جناح النورس البحرى اذ يعلو ، ومصطفق اذا يلقى بــه الماء
انيت صخوره السوداء ــ ما ادخلت فيه قوائم الفرس ــ
وفى عينيك جوع القاعدين يحاسبون الموج ، تنتظر
لعل سفينة لك فى حشاها القمح تظهر ، حابس النفس
تظل تشد ما ترمى به الامواج والقدر
ويفرح قلبــك المحزون للدخــان
ما ان عاد يفرح للسحاب الثر فيه الرعد والمطر .

•—•

اطل الله لما صحت : غيثك الميمون فابتسمــا
اطل الغيم تدفعه رياح الغرب فجر رعده وهمى
فترب الارض بعد الصحو يعبق بالشذى البرى

Digital © Al-Kalimah

تحيــا فى دواخله الجذور تظل خضراء !
تفجرت العيون من القرار على الثرى مــاء !
كما الماء كمــا الامطار خلــف البحر تحبس ثم تنهمــر
فيفرح فى الحقول الناس بعد الخوف والحزن
فمن سيظل ، يبسم ، او يمد الترب بالمزن ؟
وقد وليت وجهك نحو هذا البحر تستسقى وتنتظر
وليس وراءه رب يعيــد الخلق لا يحيــا
حيــاة الناس اذ تسعى فلا زرع ولا سقيــا
يقول لبعض هذا الترب : كن فيكون منه الماء والثمر .

1965/9/14

محمــد الخمــار

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

بحث ملخص عن مجلة فنيــة

تلخيــص : حســن المنيعــى

أصالة الفن الزنجى

كان الفن الزنجى يعتبر منذ خمسين سنة بما فى ذلك الاقنعــة والتماثيل ، مجرد مجموعة من التحف البسيطة يمل الرحالة مــن البيض على اقتنائها وحملها الى ديارهم قصد التذكار والاحتفاظ بمراحل سفر سبق لهم أن قاموا به الى منابع ذلك الفن . واليوم اصبح الكل يتطلع فى تلهف واشتياق الى تلك الاثار الزنجية التى تبهر بجمالهــا وروعتها سائر المتذوقين والمختصين بجمعها ودراستها ، من ذلك نرى أن الاستاذ « وليام فاغ » قام فى السنة الماضية بترشيح بعض التحف التى كانت كل واحدة منها تمثل اتجاه قبلة معينة ، ثم قدم ما تمكــن من جمعه فى معرض اقامه بباريس ليثبت بذلك مدى اختلاف آفاق الفن الزنجى وشدة ارتكازه على معطيات القبيلة ومداركها.

هذا ونحن ندرك من خلال هذا المعرض ان افريقيا السوداء تبرز كعالم يكثر فيه التناقض وتفيض ارجاءه بأحكام بلاستيكية متفاوتة رغم

Digital © Al-Kalimah

جوارها ، كما أن منها ما يبدو متقاربا فى بعض الوجوه والمجالى . على أنه رغم ذلك ، وبقطع النظر عن بعض الاثار القديمة المتمثلة فى البرونز والفخار والاحجار الصغيرة ، فان الخشب يبدو المادة الاولى التى ينقض عليها الفنان الافريقى ليخرج منها ما يريد من اشكال ونماذج. لكنه ما دامت القارة عرضة لموجات من الرطوبة ، فان الحشرات تنخر الخشب المستعمل ثم تدعو الى تحطيم سريع للتحفة . لدى يصعب العثور على اثر يكون من حظه تحقيق استمرار فى سنوات عديدة ، زد على ذلك أن الكنز الافريقى يغدو برمته محط تشتيت فى سائر أركان العالـــم يتعدى أن يعطينا فكرة مقبولة عن اللوحة التى قام بعرضها الفنان . وهذا شأن جميع الفنون التى لا تتوفر الشعوب الواضعة لها على لغة مكتوبة . لذلك كان من الصعب تحديد مظاهر الفـــن الافريقـــى والوقوف على أساليبه ، ذلك لانه ملىء بايقاعات مختلفة لها سمتهـــا الدينية ، واللغوية ، والاجتماعية والمناخية ، التى تختلف باختـــلاف القبيلة ، وميول افرادها الذين يحرصون كل الحرص على مسايـــرة لغتهم البلاستيكية ، والخضوع لاعتقادهم الدينى ، الشىء الذى يجعل رموزهم ومناهجهم فى التعبير غامضة بالنسبة لافراد القبيلة المجاورة.

ثم انه لما كانت افريقيا لا تخضع لاى قانون دوغماتي كما اثبت ذلك علماء الاتنوغرافية ، ولا تعرف غير نظام الطبيعة فى تنقل القبائل ومحاولة اختراق آفاق جديدة عن طريق التبادل التجارى والثقافى ، فقد كان بديهيا ان يتأثر سكانها بعقليات ثانية وإيديولوجيات حديثة . وكان ان دعى ذلك الى ارساء نزعات متعارضة فى نفس القبيلة كـــان

Digital © Al-Kalimah

بسود المذهب الطبيعى ، والتكعيبية التجريدية مثلا فى لوحة الفنان دون أن يحاول الغاء واحد منها كما هو الامر فى القناع « موسى » الذى تشع فيه الاساليب التجريدية المطلقة وتتداخل فى شخصية قارة .

هذا ولما كان الامر كذلك ، فقد حاول الباحثون استكشاف جوانب الاثر الاوروبى فى الاتجاه الطبيعى عند كل فن قبيلة « يوروبا » و « باكوبا » ، وكذا اثر الاسلام فى النزعة التجريدية عند بعض القبائل. وكانت النتيجة ان اقتنع هؤلاء الباحثون بوجود فن طبيعى فى السافانات، وفن تجريدى فى وسط الغابات ، الى جانب طغيان آثار الفنون المصرية القديمه وكذا بعض الفنون الشرقية . بيد انه لا يحق لنا ان نثق بذلك ما دمنا لا نتوفر على برهان قوى يثبت جوانب هذا التأثر الذى يبعد حدوثه تمثال « فانغ » البديع الصقل والخطوط ، والذى يعتبر من وضع فنان بدائى ينتمى الى قبيلة آكلة للحوم البشر ، وبالتالى بعيدة عن كل ارتباط بقبيلة اخرى .

ومن هنا ، فان الوحدة التى لا نستطيع الوقوف عليها فى الفن الزنجى ، نستطيع ادراكها فى النظام الدينى لهذا الفن ، اذ ان الزنجى يغدو أمام الطبيعة القوية المحيطة به وكأنه مجرد من كل الوسائل المادية للتأثير فيها مما يحفزه الى تعويض هذا النقص عن طريق العمل من الجانب العقلانى . ثم انه ما دام محافظا بطبعه فان كل ما يحدث خللا فى النظام الطبيعى يكون فى رأيه خطرا وتهديدا . وعليه فان بنيانه الاجتماعى واساطيره وبدعه ترمى الى تحقيق هذا التوازن الزمنى الذى يمكث دوما متأرجحا بين قوى الخير والشر وسائر القوى الايجابية

Digital © Al-Kalimah

او السلبية ، كما أن الفن يبقى فى رايه قبل كل شىء أداة تاثير فى تلـــك القوى وفى أجواء العالم الذى يتنقل فيه .

كذلك نرى ان الفنان الزنجى لا يتوفر على كلمة تخول له توضيح فكرة الجمال . لذا فان القناع لا يكون جميلا الا اذا كان قوى الاثر . وهذا لا يعنى انه يمكث خاليا من المهارة الفنية التى لا بد ان يتميز بها واضعه وكذا من كل العناصر البلاستيكية التى يحق ابرازها فى عمله ، وانما الملاحظ أن الفنان يذهب بعيدا برغبته فى الخلق وتكون رغبته هذه جد ملتصقة بدعامة عاطفية دينية تختلط بدورها بطاقة التعبير الرامية الى تحريك قوى الحياة.

هذا ومن الاجحاف أيضا أن نتقول فى اصالة الفن الزنجى كمـــا فعل ذلك بعض النقاد عندما اثبتوا ان الزنجى يجهل الفن كل الجهل ويصل الى الجمال بطريقة عفوية كما حدث « لجورردان » بطل موليير عند ما كان يقرض الاشعار دون أن يعلم ذلك . بل يكفى أن نتأمل الاثار التى نتوفر عليها كالادوات المنزلية التى تزين اروقة المتاحف لندرك مراحل عملية الابتكار عند هؤلاء وسمو ذوقهم القائم على البحـــث الرصين . اذ أن كل شىء خاضع لقواعد ثابتة متجسدة فى تـــوازن المكعبات وتناسق الاشكال الهندسية حتى فى ابسط الصور . وهـــذا يؤكد بالطبع مسؤولية الفنان سواء كان يلهو بعمله فى اوقات الفراغ اوكان متخصصا فى تجربته . كما أن هذه المسؤولية تجعله محاطـــا بعوائد وطقوس معهودة لدى افراد القبيلة ، لا يستطيع الانحراف عنها.

فان الفن الزنجى لا ينفصم عن الناحية الدينية او الرمزية والا

Digital © Al-Kalimah

اصبح فنا مشتت الاصول مفكك المعالم وانحط فى فترة قصيرة . وعليه فلكل انتاج افريقى قيمته الفنية والروحية كما هو الشأن بالنسبة للاصنام (الفتيش) التى تجسد اعمال السحرة وكذا التحف التى تزخر بها بلاطات القبائل المتمدنة وما تنطوى عليه من اتقان لاستعمالها مواد صلبة كالبرونز والذهب ، وهى التى تجد كل الاقبال لما تبسطه من وجوه مؤلهة لملوك راحلين . والى جانبها يقف تمثال السلف شاهدا على وحدة القبيلة ومدى ارتباط اعضائها من الاحياء والموتى .

أما القناع فهو العنصر الدينامى بين الكل ، بيده القوى الشريرة، ويركز النظر فى الخير ، لانه تعبير صريح عن ارادة قوية ، عن حياة لا تريد الاستسلام للموت . لذلك فان قناع « باولى » المشهور ينطوى على هذه الرغبة فى الدوام والبقاء ، رغبة الاسلاف فى التعايش مع احفادهم . وهذا ما جعل الفنان يمكنه من حركة دائبة فى ملامحه كالجفون النصف مفتوحة والنظرة الصافية كانه يريد اشعارنا ان الحياة بصعب قهرها لانها تحالفت مع الموت .. وهذا ما نتوصل اليه بالفعل ويدفعنا الى الايمان بأن الفن الزنجى يقوم على حوار مقدس وتعبيرات درامية جميلة ومعاهدة بين خصمين متلازمين الى الابد هما الحياة والموت .

حسن المنيعى

Digital © Al-Kalimah

محمد برادة

هدية مرفوضة

لم يحمل ضياء الصباح حركة للدكاكين المعدودة القابعة فى صف حلزونى.. واصحابها بسحناتهم الداكنة يرسلون نظرات قلما تتغير.. وقلما يضطرون الى الكلام، لان مؤالفتهم لسكان قرية الرمانى، وحفظهم لحاجياتهم تغنيهم عن الكلام الزائد.. يكفى ان يقف الشخص امام البقال ويقول :

— اعطنى كيلو..

دون أن يتم الجملة، لانه متأكد من سرعة التقاط البقال لمطلبه ..

على ان هذا الصمت الذى يرين على سكان قرية « الرمانى » ينقطع فجأة اذا طرأ حادث ما، جل او صغر، ومن اى نوع كان.. وكأنك القيت بحجر وسط بحيرة هادئة، فتتولد التموجات، وتختفى تجاعيد الوجوه لتخلفها اشارات تعبيرية جديدة.. وتنطلق الالسن لتقذف بما اختزنته من كلمات والفاظ، فيها الاصيل مما انبتته ارض

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

ـ الرمانى ـ وفيها « المستورد » مما جادت به العاصمة، بحكم الجــوار..

والمبشر بالحادث الجديد، له ميزة مغرية، لان اسمه يظل يذكر كسند للخبر المروى الى ان تتلاشى جدته، ويخيم التفاهم الصامت من جديــد..

وعندما وصل الهاشمى، الى صف الدكاكين.. لم تكن الساعة تتجاوز العاشرة، وكانت تبدو عليه مظاهر الانفعال، ولكنه حائر من اين يبدا ليعلن الخبر الهام.. ولاح له وجه « ابا الفاطمى » الجزار، فتذكر مهارته وقدرته على اشاعة الاخبار فتوجه اليه مباشرة.. وضبط نفسه قليلا وهو يبحث عن العبارة الاولى..

ـ ايوا كيف حيتك فهادولاد الحرام ؟

ظن « بالفاطمى » ان الامر يتعلق بالشكاية المالوفة من سـوء معاملة « ليكولون » (المعمرين) الذين يتعامل معهم الهاشمى لنقل الغبار وتوزيعه على الحقول المترامية الاطراف..

ولكن الهاشمى أردف رافعا صوته :

ـ حقنا هادا ـ وكل شيء مأيدنا فيه .. القانون، والناس، وربه العباد.. وخا ذاك الشيء، تايضاليو علينا الله يفتح..

تبين الان ان الامر ينطوى على عنصر جديد، فململ « ابا الفاطمى » شواربه ليسأل :

ـ يـاك لباس.. شنو تـم ؟

ـ اودى القضية اللى قلت لك عليها ذاك النهار.. قضية الارض

Digital © Al-Kalimah

ديالى انا وولد عمى ليكان لفرنسيس خذها لنا بعد ما جاء .. هاديك اللى مور الكدية..

ولما تأكد من أن أبا الفاطمى يعيره اهتمامه انطلق يحكى بحماس.. ولم يكن حديثه هذه المرة يقتصر على التعبير عن عزمه فى اتخاذ الخطوات اللازمة لاسترجاع الارض المغصوبة.. كان يعلن اخراج محاولته الى حيز التنفيذ.. فقد قابل هذا الصباح «القايد» وقدم له الاوراق التى تثبت ملكيته هو وابن عمه لقطعة الارض الواقعة وراء «الكدية»، والتى اغتصبها منهما المعمر «مسيو رونى» منذ عشرين سنة.. وكانت فرحته عظيمة يوم سمع بصدور قانون ارجاع الاراضى المغتصبة الى اصحابها، وذهب بنفسه الى العاصمة واستفسر العارفين، فاكدوا له النبــــا العظيم.. ورجع الى « الرمانى » وهو يردد :

— أسيدى الاستقلال نعمة.. واش من نعمة..

الا أن مقابلته للقائد هذا الصباح، جعلت الامل يصبح وهما.. فقد فوجىء بأجوبة غريبة.. ولم تكف الشهادة التى سجلها فى ورقة «مخزنية» على لسان سكان قريته لاثبات تملكه لبقعة «الكدية».

قال وهو يروى تفاصيل المقابلة لــ «بالفاطمى»، قلت له :

— أسيدى القايد ، جنا ما كنحتاجو شاى البرهان.. خذ طرف من لحمى قطعو وحرقو ، والا ما كانتش ريحتو بحال ريحة تــــراب «الكدية»، عمل بيا ما بغيت .. وما بقالنا غير نعيطو عليهــا ، وتكول نعــم..

Digital © Al-Kalimah

ونقطة الضعف فى قضية «الهاشمى» وابن عمه، ترجع الى عدم توفرهما على شهادة عدلية تنص على ملكيتهما للارض .. ثم ان « مسيو رونى » أشهر معمر فى الناحية ، يشغل أزيد من مائة شخص ، وله علاقات فى العاصمة.

انتقل خبر مقابلة «الهاشمى» للقايد بسرعة بين الدكاكين . وبدات التعليقات تترى :

« الله ياخذ الحق ، هذا هو الاستقلال اعباد الله، بحال اليوم بحال البارح».

شخص واحد لم يكن يعلق بشىء ، هو «بالفاطمى» الذى راح — كعادته فى مثل هذه المناسبات — يعصر دماغه للعثور على اقتراح يحل المشكل ، ويضمن له استمرار تقدير الناس لسداد رايه، وخبرته الواسعة.. وسأله الهاشمى :

— اش ظهرلك ابا الفاطمى ؟

ودون أن يرفع سكينه عن فخذ الكبش التى كان يقطعها بأناة ليعرضها فوق الخشبة ، تبسم وهو يقول :

— القضية ساهلة.. تيخص غير اللى يوقف معك.. مسيو روني ما هوشي فرعون ، وانت القانون الجديد ديالنا تيأيدك.. والناس كلها عارفة باللى البقعة دا الكدية ديالك انت وولد عمك. انما كيخصك شىء رزامة ..

— بحالاش ابا الفاطمى ؟

— انا من نظرى تقدموشى هدية لوزير الفلاحة.

Digital © Al-Kalimah

ـ هدية ؟ أنت عارف الحالة ضعيفة..

كان « بالفاطمى » لا يتوقف عن ترتيب قطع اللحم فوق الخشبة، وهو يتكلم ببطء ينم عن ثقته فى ذكائه.. وهو الان فى قمة النشوة ، لان ذهنه تفتق فى هذا الصباح عن حل سيكون حديث سكان الرمانى أمدا طويلا..

ومسد لحيته قبل أن يجيب :

ـ مسيو « رونى » غادى تخسرو عليه.. ثور .. ثور واحد..

ولان الهاشمى يعرف جدية بالفاطمى وابتعاده عن السخرية والمزاح، فقد صبر نفسه ليستمع الى بقية الشرح..

ـ ثور واحد نعزلو لك من السوق، وتديه انت ولد عمك لباب دار الوزير، وتسيلو دمو. وما يمكنش يخسر لكم خاطركم، ولازم يساعدكسم..

وبسرعة انطلقت السنة الواقفين بباب الدكان تستحسن الفكرة، وتحث الهاشمى على التعجيل بتنفيذها .. فانصرف ذهنه الى المبلغ المالى الذى ادخره منذ عامين لشراء بغل آخر يساعد « مسعود » (البغل الثانى) فى جر عربة الغبار..

تحطم جدار الصمت المألوف الذى كان سكان القرية يحتمون به .. وطغت قضية الهاشمى وابن عمه على الالسنة.. وكثرت التعليقات واستيقظ الحقد الغافى فى نفوسهم.. حقدهم على المعمرين الفرنسيين الاربعة الذين ما يزالون قابعين فى حقول «الرمانى» مثلما كانوا (بالامس باستثناء عطف زائف يبدونه محل عداء سافر.

Digital © Al-Kalimah

و«مسيو رونى» بحظى بالنصيب الاوفر من كراهية أهل الرماتى اذ كثيرا ما ألقى على عماله دروسا قاسية فى ضرورة الامتنان للاسياد الذين حملوا النور والمدنية لاحفاد «بوحمارة». كان لا يترك فرصة تمر دون أن يسمعهم بعربيته الركيكة، تهديداته وتوعداته بعدما يحتسى زجاجة «الشود صولى» وتتورد وجنتاه ..

ولم ينج سوى عدد قليل من اذايته ، لانه كان عقب كل محاولة لاضرام النار فى حقوله، يختار فئة يصليها فنون العذاب ..

فلو استطاع الهاشمى أن ينتزع ارضه من مسيو رونى، فستكون بداية لنهايته .. ومن ثم ازداد الاهتمام بهذه القضية وتطلعت الانظار لمعرفة نتائج الهدية ..

...

اكثر من ثلاث ساعات قضاها الهاشمى وابن عمه ـ بعد وصولهما صحبة الثور ـ يبحثان عن دار وزير الفلاحة .. كانا يعرقلان حركة المرور فيعنفهما الشرطى ويهددهما بانتزاعه منهما.. فألزم الهاشمى ابن عمه بالوقوف فى ركن بعيد يحرس الثور ، ثم ذهب يبحث وحده عن العنوان.

وكان كل شرطى يحيله على آخر بعدما يستفسره عن غرضه من معرفة العنوان ، فيجيب الهاشمى بانه يحمل للسيد الوزير هدية نفيسة .

صاح من بعيد يستحث ابن عمه على الوقوف، ثم نادى على صاحب « كروسة » ، كان مارا بالقرب، وتعاونوا على شحن الثور.

Digital © Al-Kalimah

وامسك الهاشمى بقفة السكاكين، وصمت لا يرد على اسئلة ابن عمه، لانه كان يتهيأ للمفاجأة. وكان الشارع الفخم الهادىء يضاعف رهبتهما، ولكن التضية بالنسبة لهما فى منتهى الخطورة. يجب أن يتمسكا بكل ما اديهما من رباطة الجأس والشجاعة.. فقد كان سكان القرية جميعهم يتطلعون الى مآل هذه المحاولة.

— اللـه يلقيك الربح اسيدى

هكذا قال الهاشمى لصاحب « الكروسة » بعدما أنقده اجره.. ثم أخذ يتأكد من خلو الشارع حتى لا يمنعه احد من تدنيس الحى .. وبحرص شديد، استل سكينا كبيرة وطلب من ابن عمه أن يقرب الثور الى الباب .. ثم بحركة سريعة، أجهز على عنق الثور، فتطاير الدم على ملابسه ، وفوق عتبة الدار.. وتحركت أرجل الحيوان تستمسك بارضية الطوار الاملس.. ولكن التيار كان قد نفذ الى جميع اعضائه، فعطل تماسكها وصلابتها.. وسرعان ما ترنح ليسقط على الارض محدثا بارتطامه ضوضاء جعلت حارس البيت يخف الى الباب ..

— باسم الله الرحمن الرحيم .. اشنو هاذا ؟

بدأ الهاشمى يصيح فى انفعال :

— جينا قاصدين بابك وباب الله اسيدنا الوزير .. مظلومين ، مقهورين ، تاخذ لنا حقنا ان شاء الله من اعدائنا الكافرين..

والصياح يعلو ، والنوافذ ــ كل نوافذ الشارع الهادىء ــ تفتح لتنظر فى استغراب الى هذا المشهد العجيب .. ان وجود ثور فى مثل هذا الشارع كاف وحده لادهاش السكان .. وان يكون الثور

Digital © Al-Kalimah

مذبوحا .. وشخصان يلوحان بشاليهما ويصيحان فى حالة هستيريـة أمام منزل الوزير ، فذلك ما يتجاوز حدود الادراك ..

وفتح «بلكون» فوق رأس الهاشمى ، واطلت امرأة شقراء متدثرة بفوطة الحمام ورفعت صوتها تسأل :

ـــ كيس كوسيك سا ، اومار ؟

وارتج الخادم وهو ينقل طرفه بين السيدة وبين الهاشمى وابن عمـه ..

ـــ ريـان مـدام ..

ثم يلتفت الى الهاشمى ..

ـــ اسيدى سكتنا .. هادى مرات الوزير .. واش بغيتى تدخل الحبس اهاد المزغوب .. هز ثورك وزد خلفا ..

ولكن الهاشمى وابن عمه يضاعفان مـن صوتهما مستغيثيـن مستنجدين . وبعض المارة قد توقفوا .. والضوضاء تكتمـل .. والفاهمون من المتفرجين يشرحون هذه الطريقة ويؤولون مقصـد أصحـاب الثـور .

وبعصبية ساخطة، دخلت السيدة الشقراء، واقفلت باب البلكون بعنف، ثم امسكت بقرص الهاتف تطلب البوليس .

ولان سيارة الشرطة لا يمكن ان تحمل الثور المذبوح ، فقد طلبت كروسة خاصة، واخذ شرطى يستجوب الهاشمى والابتسامة تعلـو شفتيه .. والسيدة الشقراء تتكلم فى نرفزة .. وتلعن العقول الجامد التى لا تريد أن تفهم كيف تحل المشاكل الادارية .

Digital © Al-Kalimah

واحتار عميد الشرطة هل يعاقب صاحبى الثور ام يطلق سراحهما لان كل ما فعلاه يتعلق بعادة سارية فى قريتهما..

وعندما ادرك الهاشمى حقيقة الموقف، خشى ان يضيع الثـــور سدى ، واخذ الندم يساوره على مغامرته بثمن البغل.. وموسم الشتاء على الابواب، فجعل يستعطف عميد الشرطة لكى يرجع له ثوره ..

واطلق سراحهما ومعهما ثورهما المذبوح.. والمساء يزحـــف بسرعة ، والعاصمة تتضاعف حركتها..

ــ كيف غادى نفكو هاد الوحلة ؟

هكذا سأل ابن العم الذى لم يكن مقتنعا تماما بتنفيذ الفكرة .. واخذ الهاشمى يفكر فى مخرج، ويتصور صدى فشلهما فى القرية.. لقد ورطهما بالفاطمى .

« ماشى معقول يضحك علينا بالفاطمى، وهو رجل نية .. كيظهر باللى هنا اللى النية ما بقتش .. مالقيناش مع من نتفاهمـــو .. كيسكوسيك عمر؟ خلينا هناك مسيو رونى .. لقينا هنا مدام «رونى..»

ثم التفت الى ابن عمه وهو يقول له بعزم :

ــ الثور فلوسو فيه. اتبعنى وتشوف ..

ساعدته معرفته للعاصمة، على تنفيذ فكرته .. فقد أوقـــف « كروسة » حملتهم العكارى .. وقف بالقرب من براكات تبيع الخضر، ثم اشترى مصباح كربون صغير، وخلع جلابيته وشرع فى سلخ الثور.. وتجمهر الناس .. فرفع صوته :

Digital © Al-Kalimah

ــ تعالوا الماسكين على الرخا، اللحم غير بستين ريـــــال للكيلــو ..

وفى فترة وجيزة كان الزبائن يحيطون بالثور ويتهافتون على الشراء وهم يتعجبون لرخص الثمن .. وابن العم يحاسب المشترين، والهاشمى ناشط فى السلخ والبيع، بعدما استلف الميزان من الخضار المجاور .. وظل صوته يرتفع بين الفينة والاخرى :

ــ تعالوا الماسكين على الرخا .. غير بستين ريال للكيلو .. الصلاة على النبى .

الرباط 14 ابريل 1964

محمـــد بـــرادة

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

احمد المجاطى

خف حنين

الحذاء

اتيناه شدنا للدرب وهم اشعل الميدان
أتينا من وراء السور
نفضنا ظلنا وعجاجنا والصخب والاكفان
وتمتمناه بعون الله نبدا ، ايها القنديل
مدادك منك . أنت الزيت والقرآن والانجيل
ومرت حقبة وتصرمت أخرى ونحن ندور
نبحنا الضب من سغب ، ونمنا فى ظلال الشيح
وما عزفت لنا الاوتار غير قصائد من ريح
قدومنا
ومر بركبنا الانسان
يمضغ عظم ناقته وفى عينيه خف حنين

Digital © Al-Kalimah

وكنا اثنيـــن
فصار الصمت ثالثنـــا
ورابعنـــا دموع العيـــن

• • •

على باب المدينة (1)

ـ خيوط من اذان الفجر تمسح غفوة الاشياء ،
وسرب من طيور البحر ، يحمل كل منقار
عيون جزيرة خضرا ،
وظل تحت أمواج النخيل ، وضوء شباك ،
وماذا كان فى عينى من حلم سوى قطرات
هذا الضوء ، اشربها ندى ، وأصبها
سحبا وامطارا ؟
وماذا ؟
ـ كان فى عينيك خيط من أسى ،
يا شارب الديجور ،
أى عجاجة فتلتك حبـــلا من دم
ورمت بـــك الدارا

(1) يدور الحوار فى هذا المقطع (الثانى) بين الوافد على المدينة وبين المهاجر منها .

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

ــ ظننا النسر حط على مدينتكم ، فاين مضى ؟
ــ تغلغل فى الظلام ، طوى حفيف جناحه
المسحور
ــ وكيف تسادرون النجم بعد غيابه
ــ كنا نلفق احرفـــا ونبيع اشعارا
ولم نفلـــح !
فقلت أشق للمرقى طريقا فى العذاب ،
ادق باب الريح ، افتح جوف صدرى للغراب ،
فتشرق الفرحه
على قطرات دمع او دم رعشت بها الاقدام
عند السفـــح
ــ دونك عشوة الصحراء
فاضرب فى صميم الملح
صب الكل فى الاجزاء ،
اتينا من وراء السور ما ضحكت لنا قمحه
ــ تشد يدى ، عند المنحنى حانوت خمار
نعرج ثم نمضى
ــ نسكب الاحزان فى الاحزان
نفرح أو نموت سيان .. نحن هنا الحقيقة

• • •

Digital © Al-Kalimah

الـــوصـــــول

تعثر ذلك السكران فى شفتيه وانكفا
ومسح شظية المرآة فى احزانه فرأى
جنـــازتـــه، شفاهـــا تمضـــغ الصلوات،
نجمـــا صاح وانطفا
وأفلت من يديه حلم دالية ومسبحة
وام تنشر الاثواب فوق السطـــح
فامتلأ ، نباحا ــ ربما قيئا ــ وعض لسانه
ونـــأى

Digital © Al-Kalimah

Digital © Al-Kalimah

محـمـد زفـزاف

عربة الاطفال الصغيرة

(قـصـة)

كانت الاشياء قد غاصت فى الظلام . ونزل الليل مـن السماء الى الارض . ولا احد يمر فى الزقاق الذى يشبه الدهليز. هناك اعمدة النور المنتصبة كمردة خبيثة تحاول ان تمدم الظلام، وان تحد من توسعه اللعين كالسرطان. الريح اخذت تهب بعنف. وبعض النوافذ التى لـم يحكم أغلاقها جيدا تحدث قرقعة قوية بارتطامها مع الحيطان. الريح تهب ولكن الجو ليس باردا. انه دافىء شيئا ما . ومع ذلك فلا أحد يخطر ولو من بعيد. فكأنما الحرب قد نصبت خيامها، او الشتاء قـد جاء فى غير أوانه. ان مثل هذه الاوقات غالبا ما تكون مريحة، وغالبا ما يكون حظ ابراهيم فيها لا يقل عن حظه طيلة النهار. فالمارة لا ينون يخطرون فى جيئة وذهوب كانهم فى سوق. ولعل هذا السبب هو الذى جعله يختار هذا الزقاق منذ زمن ليس بيسير. اما هذه الليلة فالامـر يختلف. لا أحد يمر. ولا أحد يطل من النافذة. فكأن العالم غير العالم. وما تزال الريح تهب بعنف دون أن تحمل معها البرد القارس. وفكر

Digital © Al-Kalimah

ابراهيم « لا بد أن فى الامر شيئا. مستحيل أن يمر ثلاثة رجال فقط طيلة ساعتين كاملتين . لابد أن فى الامر شيئا. » ولبث هادئا صامتا كشىء من الاشياء. ان الحيرة تأخذ بعقله وتدهشه. والاستغراب يملك عليه ذاته وجميع افكاره. الضباب هو الاخر بدأ يتساقط .. فجأة أصبح المكان كأنه سيارة شحن كبيرة تحمل أطنانا من القطن المندوف. فالبياض يعم الضوء مختلطا بالظلام، واعمدة الانارة لم تعد تظهر منها سوى نقطة فى الراس صفراء مضببة.

لبث ابراهيم ضائعا فى الضباب لا يريم. ثم شل مخه لفترة من الوقت. واذ مرت أقدام من بعيد وهى تصطدم بالطوار مرارا استعاد وعيه : « لا بد أن فى الامر شيئا ! والان ما جدوى البقاء هنا ؟ ! » وتحسس عربة الاطفال الصغيرة التى ترقد الى جانبه كقطعة اليفة ثم تحسس قطعة الجلد المشدودة الى مؤخرته التى تنغرس فيها عظام هى كل ما تبقى له من رجليه ، وتحسس طاقيته فوق راسه كأنه ليس هو. كأن خر هو الذى ينسول، ويقعد الان على الرصيف فى راس الزقاق ويتحسس جلدة مؤخرته أو سرواله المتين على الاصح.» ما جدوى البقاء هنا الان ؟ » قال لنفسه. ورفع قطعة الورق المقوى التى توجد امامه، وتلمس الارض، عل قطعا من النقود تكون قد ضاعت منه. فهو يضع النقود بين قطعة الورق المقوى هذه وبين الارض. وفى بعض الاحيان تضيع منه فرنكات يكون قد احصاها منذ استلامها من يد كريمة. طالما عثر على قطع من النقود فى مكانه هذا لدى اختلافه اليه كل يوم وقت العصر، ليبقى حتى يسقط الليل كما هو الشان الان،

كان قد قرر يوما أن لا بد من صنع كيس جلدى يستخدمه لجمع النقود. ولكنه استهول الامر وخشيه. فربما سطا عليه لص وخطفه من يده بسهولة، ولذلك اكتفى بان يضع كل ما يتصدق به عليه الناس

Digital © Al-Kalimah

تحت قطعة الورق المقوى التى يجلس عليها حتى يكون بمكنته أن يأمن تهور نذل من الانذال الذين ترميهم المدينة الى هنا .

لقد أصبح كل شيء ضبابا فى ضباب. وأحس ابراهيم بتوتر عضلات جسمه الملتصق بالارض كجذع شجرة فقدت نصفها الاعلى. وطفق يتمدد فى حيزه الضيق .. وتزحزح قليلا. كان يحس بالالم والضيق واستغرقه تفكير طويل حتى أنه لم يأبه للخطوات التى مرت أمامه، وهى تدق الارض كأنها خطوات جندى تعب. لا شك انها كانت لسكير. ولاحظ ابراهيم بعد فترة من الوقت أن الزقاق خاو الا منه ومن شبح تمامة أزبال تقبع أمامه عن كثب. وفكر انه لا يزيد عنها طولا ، بل هى اطول منه. ودار برأسه خاطر غريب. وارتمش له كثيرا. ولعن نفسه لانه استدعى مثل هذا الخيال : ان يأتى وبش من الاوباش الان ويحمله الى تلك القمامة يضعه فيها بعد أن يسرق منه نقوده. وشد على عربة الاطفال الراقدة بجواره. وحركها الى الامام والى الخلف ليتاكد من أنها ليست معطلة وانها تستطيع ان تقله الى كوفه كما هو المعتاد. ولم يعد أمامه الان — وداخل حفرة الصمت والظلام التى يتردى فيها — الا أن يفكر فى كلثوم. كأنها لا تعلم بهذا الضباب الكثيف، وبهذه الريح، وبهذا البرد الذى بدأ يحتد شيئا فشيئا. لقد تأخرت جيدا يا كلثوم. هل تظنين ان هناك شخصا آخر سيدفع بى العربة اذا لم تقدمى الان ؟

لبث يتفرس ويحدق عله يتبين معالم ما يقبع او يخطر امامه. ولكن عبثا. فأعمدة الانارة لم تعد تضيء حتى عن نفسها. وخطر له أن يزحف قليلا معتمدا على يديه. ومضى يدفع عربته الصغيرة بجسده حتى وصل أخيرا الى عمود الانارة حيث كان الظلام يخف نسبيا. واخذ يتنفس بشدة كأنه صعد جبلا عاليا. الان يمكننى ان اراقب شبح كلثوم. كان كان الزقاق ما يزال غارقا فى صمته. ليس هناك مارة ، وليس هناك

Digital © Al-Kalimah

دراجات . كان بعض الاطفال فقط يقنزون هناك بعيدا ويتصايحون. لو كنت مثلكم لذهبت الى فراشي ولاستمتعت بالدفء والراحة والنوم. ايها الاشقياء الصغار، انكم تبحثون من التعب بأى ثمن. لقد ضاع الأمل في قدوم كلثوم الان. لو كانت هذه المرة الاولى التى تتاخر فيها لما صدق انها لن تجيء. ولكنها مرارا تركته فى الزقاق ينام متوسدا عربته الصغيرة . فى المرة الاخيرة التى حدث له فيها هذا، عندما استيقظ فى الفجر، وجد نفسه مرميا فى وسط الطريق بلا نقود. الليلة لن تتكرر المأساه . ولكن كيف ؟ لم يفكر كثيرا. فجأة بدأ يصرخ بالاطفال الذين يمرقون امامه ويقفزون هنا وهناك .

ــ من اراد منكم ان يربح ثلاثين فرنكا ؟

قالوا بصوت واحد :

ــ انا . . انا . . انا . .

ــ طيب. سيكون ذلك مقابلا لعمل يقدمه لى

قال احدهم :

ــ انا مستعد

ــ انت لا تستطيع . انت لا تزال صغيرا. اريد هذا الكبير.

قال أكبرهم :

ــ انا ؟

ــ نعم.

ــ ثلاثون فرنكا قليلة جدا.

ــ ولكنك لم تعرف بعد ما هى الخدمة التى ستقدمها لى ؟

ــ أعرف ذلك. ولكن الليل متاخر جدا. ان عمل الليل غير عمل النهار.

ــ سأعطيك خمسة وثلاثين.

ــ لا. أربعين.

Digital © Al-Kalimah

— انت أحمق. يمكننى ان آخذ سيارة اجرة.

— سيارة اجرة ؟ ! فهمت الان. تريد أن ادفع بك العربة ؟

— نعــم.

— خمسون فرنكا.

— يمكننى أن آخذ سيارة أجرة.

— خذها اذن. هيا بنا.

ومضى الاطفال يركضون، واذ خشى أن يدخلوا بيوتهم ليناموا صاح بهم مرة أخرى. وقبل عن مضض دفع الخمسين فرنكا رغم أن رصيده اليومى لم يكن مرتفعا . وبمساعدة الاطفال صعد الى العربة، واستوى فوقها مثل كيس ملىء بالبطاطيس.

— هل ارافقك يا على ؟

قال طفل لصديقه الذى اجابه للتو :

— تدفعه معى. هل توافق ؟

— نعم.

ومضيا يدفعانه وهو يهتز فوق العربة الصغيرة كانه لا يملك من نفسه شيئا .

• — •

كان مرميا فى زاوية من الكوخ وعيناه يتحلقان، وتدوران كعينى الحرباء . ويبدو انهما كانت مستغرقتين مع راسه فى التفكير. واخيرا قرر ان يتحرك. . فتحرك . ثم توقف وسط الكوخ، واخذ يفرك عينيه وجبهته ووجهه جميعا. وزحف الى برادة الماء، وملا علبة حربى تقوم لديه بمثابة الاناء، وشرب منها حتى ارتوى. ثم غسل وجهه ويديه . وتراجع الى الوراء حيث توجد كومة من الخرق البالية. وبعثرها ليخرج منها على الفور كسرا من الخبز. وأخذ يقضم كحيوان اليف لا يتكلم

Digital © Al-Kalimah

ولا يتعاطف . ولبث جامدا هادئا فى مكانه. فقط كانت يداه تتحركان وعكاه تمضغان. ومضى عليه كثير من الوقت وهو هكذا. ودمدم أخيرا: « انها تأخرت هذا الصباح ايضا ». واحسن انه لا يتأسف لغيابها كما تأسف البارحة. ليس هناك لصوص يسرقونني الان. انا فى الكوخ ولست فى الشارع. والوقت نهار وليس ليلا. وقطع النقود مخبأة ولن يعرفها احد سواى. امس كانت العربة هى المشكل، اما الان فالامر يختلف. يمكنني ان اتركها فى الكوخ وازحف حتى اصل الى الزقاق ولكن اذا سقط المطر وتبللت الارض وتجمعت المياه على سطحها ؟ ! ان الفصل ليس شتاء . انه ليس باردا. ولكن هذا الجو يحتمل ان ينذر بسقوط المطر . فالحاجة ماسة الى العربة الصغيرة فى انتظار الزوال لنأخذ الطريق الى الزقاق.

ومضى يزحف على مؤخرته معتمدا على يديه. وغادر كوخه. وفى الباب وجد أن الجو ملائم شيئا ما ، وانه لا ينذر بسقوط المطر كما توهم. وقرر أن يذهب الى حمادى ليسأله فيم اذا كان هذا الاخير قد راى كلثوما تخطر من هنا امس او اليوم. كان يزحف. وخلفه كان خط طويل مرسوم فوق التراب، يمتد كانه لكلب معطوم الظهر. وفكر بأنه فى حاجة الى ان يشرب كاسا من"الشاى منعنعا. وطمأن نفسه على انه سيبتاع رطلا سكرا من حمادى. أما الشاى فلديه فى كوخه ما يكفيه ليومين او ثلاثة . « حمادى لا يوجد . الدكان مقفل . يمكن أنه لم يستيقظ مبكرا هذا الصباح » وقفل ابراهيم الى كوخه راجعا. كان يتأمل فى الخط الذى تركه خلفه قبل لحظة « كأنني محراث » قال لنفسه، ثم أضاف « أو كأنني قطار » . ولما وجد نفسه أمام كوخه التفت. وأخذ يتأمل خطين شبه متوازيين رسم احدهما عند الذهاب والاخر عند الاياب . وابتسم فى جذل مشوب بالاسى « كأنني قطار !! »

Digital © Al-Kalimah

وانتظر حتى الزوال لكن كلثوما لم تجيء. ولذلك قد قرر أن يزحف من كوخه حتى الزقاق. لكن المشكل الذى الح عليه قبل أن تغيب شمس النهار هو : أينصرف أم ينتظر كلثوما ؟ وحتى لو جاءت ماذا عساها أن تفعل ؟ هل تدفع به العربة ؟ ان العربة ليست معه . هل تحمله على ظهرها ؟ هذا شيء يستحيل .

الظلام والضباب أخذا يسودان. وبدت الليلة كسابقتها. ورغم ان ابراهيم اهتدى الى انه ليس فى حاجة الى كلثوم ما دامت العربة ليست معه الليلة ، رغم ذلك ، فقد شعر بوازع الانتظار ولو قليلا . لماذا ؟ انه لا يعرف. فربما تجيء كلثوم ، ويترافقان معا فى الطريق ثم يؤنبها عن غيابها، ويقول لها كلاما كثيرا .

وانتظر ابراهيم ولكن عبثا ، كانت الليلة كسابقتها. الزقاق ليس به سابلة . والضباب يغلف الضوء والابنية. ولم يكن يحس قلقا. وقرر أن يزحف ولو قليلا حتى يبلغ محطة الاوتوبيس. ولان الليل كان ما يزال فى عز شبابه، فقد ظن أن شركات الاوتوبيس لا تزال تشتغل حتى هذه الساعة، وفى المحطة بدأ انتظاره الذى لم ينته ، وحاول أن ينهيه. فنادى على سيارة أجرة مرت أمامه. وفى كثير من الاشمئزاز كان سائق السيارة يحمله بين ذراعيه كحقيبة ويرميه الى الداخل .

وعندما توقفت السيارة قرب كوخه ، أقسم ابراهيم للسائق أنه لا يملك قيراطا. فتركه هذا الاخير وهو يلعن. وأخرج رأسه وبصق عليه . ودمدم كالرعد بلعنات عنيفة وبذيئة . وقد شعر ابراهيم لذلك بكثير من الارتياح .فتحمل اللعنات أحسن على كل حال من انفاق كذا من الفرنكات . ثم خطر له خاطر ، لماذا لا يختار شخصا آخر غير كلثوم يدفع به العربة ؟ ألم يعرف الدنيا بشر ؟

وأجاب نفسه : هناك بشر .. نعم .. لا يزال فى الدنيا بشر . ولكن كلثوما ليست مهمتها فقط دفع العربة .. انها تعطيه الليالى

Digital © Al-Kalimah

الدفيئة. وتنام معه بلا مقابل . « هذا احسن » قال لنفسه . « ولكنها تتغيب كثيرا » . ثم فكر اخيرا : هناك احمد . ابنه لا يذهب الى المدرسة، ولا يعمل شيئا، لماذا لا اذهب اليه واحدثه فى شأن ابنه ، يدفع بى العربة مرتين فى اليوم ، واقرضه اجره ؟ انها فكرة حسنة اليس كذلك ؟ ولكن اذا جاءت كلثوم ؟ لتجىء . ستكون مهمتها النوم فقط ان هذه المرأة المشردة تحب النوم كثيرا. سننام حتى نشبع بعد ذلك .

وذهب ابراهيم الى أحمد ليحدثه فى شأن ابنه. لم يكن كوخاهما يبعدان عن بعضهما ، واتفقا أخيرا .

وفى صباح اليوم التالى كانت كلثوم قد عادت من غيبتها التى استغرقت يومين كاملين ، لم يكن لها بيت. ومع ذلك كانت تغيب مدة طويلة لتختلف الى هذا الكوخ فى آخر الامر. ولم يسألها ابراهيم عن سر غيابها هاذين اليومين. فالسؤال والجواب أصبحا معتادين جدا. كل ما هنالك أنه اخبرها بأنها ستنام معه فقط. ولن تدفع به العربة بعد اليوم . وقالت له «لماذا لا نتزوج ؟ » . اما هو فقد ضحك من الاعماق ، ولم يجب اجابة شافية.

وفى الزوال عندما آن موعد ذهاب ابراهيم الى الزقاق الذى يتسول فيه، لم يأت ابن احمد ليدفع به العربة. ويبدو أنهما قد نسيا هذا الفتى بدورهما. فقد قامت كلثوم بمساعدة ابراهيم على الصعود الى العربة دون أن يتحدث احدهما فى شأنه. ومضت تدفعها به كالمعتاد بعد أن اقفلت باب الكوخ .

وفى الطريق كانا صامتين لا يتكلمان. فقط عربة الاطفال الصغيرة كانت تئن .

القنيطرة :

محمد زفزاف

Digital © Al-Kalimah

احمد السطاتي

ما هي طاقة الادب ؟
3

تدخل جان بيير فاي Jean Pierre Faye

ما هى طاقة الادب ؟ انه ، حقا سؤال غير مرح، لانه ينطوى على كلمتين كئيبتين ، تلقتين : كلمة « ادب » التى ابتذلت وسفت فى غالب الاحيان، وكلمة « طاقة ، او قوة » التى توحى بالخطورة فيما نعلم.

لنا أن نتساءل على نحو آخر قائلين : ماذا نصنع بالادب ؟ وما العمل ؟

قد يذكرنا هذا السؤال الاخير باشياء معروفة لدينا، ألم تقم عليه ايديولوجية شاملة ؟ انها ايديولوجية روسيا الثورية التى بدات فى واقع الامر، بدايتين : بداية انطلقت من كتاب « ما العمل ؟ » للينين وبداية أخرى ، قبل ذلك ، مع رواية « ما العمل ؟ » لتشير نشفسكى Tchernychveski الرواية التى حملت ماركس على ان يتعلم اللغة الروسية فى آخر حياته ، وآية ذلك ان هوميروس، اى هوميروس كان

Digital © Al-Kalimah

لم يكن يتوقف على نهاية التاريخ ليعلن باصرار التزامه فى اثر من آثاره. تبدأ الابياذة فى انشادها الاول على هذا النحو : انه الطاعون، لقد حل الطاعون فى هذه اللحظة ، ما العمل عندما يحل الطاعون ؟ سؤال طرحه اوديب الملك الطيب وتحير فى أمره ، هل عليه أن يقدم قرابين من الاغنام، أم من الماعز، أم يسلم كريزى الى كريزس كاهن ابولون. ان الاثر الملحمى يشبه الاثر التراجيدى فيما يخص البداية كلاهما يبدأ بما يمكن ان نسميه بمجموعة امكانات.

اما الاثر الروائى يستهل هو الاخر بنفس السؤال : ما العمل ؟ ما عسانا نصنع كيما نصل الى معرفة خفايا السحر وغوامضه ؟ وما عسانا نفعل لنصور القديس غرال فى حفله Saint Graal.

على هذا النحو ساءل نفسك ابولى دومادورا Apulée du Madoura النوميدى البربرى المولود بالقرب من نهر مدينة قسنطينة : ذاك الجزائرى الذى يعد فى « حماره الذهبى » An d'or اول روائى غربى، وتساءل مثله ايضا غوتيى ماب Gautier Map الكاهن الوهمى الانجلونورماندى المؤلف المزعوم لـ Lanclot نثرا ، واول من كتب من الروائيين الفرنسيين اثرا نثريا يحمل اسم « رواية » .

تلك هى الرواية فى معناها الخاص الاولى، فقد حاولت ان تجيب على سؤال : « ماذا يمكن ان نعمل ؟ » حيث انتهت بمقتضاه على صورة كتاب، ثم طرحت نفسها، بالتالى ، امامه.

لا خوف علينا اذا انحرفنا عن اسئلتنا الخاصة وبلغنا هذا الحد. لكن هل ثمة من مفتاح نستمده من خارج الاثر او القصة نتخذه دليلا موجها ؟ .

• — •

Digital © Al-Kalimah

بلـــزاك نموذج اللاروايـــة : Anti-Roman

قبل ثلاث سنوات من كتاب السيد" le Cide " ، ظهر كتاب يحمل عنوانا غريبا: «اللارواية " Anti-Roman " » ، أى قبل ثلاثمائـــة وأربع عشرة سنة من المقدمة التى وضعها سارتر لكتاب ناتالى ساروت المعروف بـــ (لوحة لمجهول Portrait d'un inconnu) حيث نعته بأنه نموذج للارواية . ولعل الوقت قد حان لكى نعود الى ذلك الكتـــاب المعاصر لروشيليو ، والذى يعد شبيها برواية دون كيشوت، بيد أنـــه دون كيشوت آخر أشد حيرة، وأشد وعيا. لقد كان كتاب اللارواية لشارل سوريل، يحمل فى البدء عنوان : الراعى الغريـــب الاطـــوار le berger extravagant وهو رواية تماكس التقاليد الرعوية، وكذا تقاليد الفروسية، وتقاليد المجاملات، بيد أنها محاكاة تهكمية قصد بها مؤلفها الى بعث قوى جديدة. يقول شارل سوريل: « اننى أمنح اعتبارى لكل ما هو موجود فى العالم واسجله كما أراه ». فمشروعه اذن يكمن فى امتلاك القدرة على انجاز هذا الاعتبار الكلى : الوصف الموسوعى للعالم وللاهواء، وهو بالذات ما حددته الرواية الواقعية والبالزاكية. وعلى هذا الاعتبار اذن تكون اللارواية التى ظهرت سنة 1633 هى حجر الاساس للرواية، وما زلنا لحد الان نحس بأن هذا النموذج مـــن الرواية يباشر تأثيره علينا ، بل وسيظل هذا التأثير مستمرا الى الابد.

الاساس الذى قامت عليه الرواية اذن اساس سلبى يقوم على النفى كما رأينا. ولنا أن نتساءل بعد هذا حول الرواية الواقعية فـــى القرن السابع عشر (سواء كانت قصة هزلية ، او روائية هزلية ، او بورجوازية). الم تصدر من هذا النفى الذى حملها رويدا رويدا حتى اوصلها الى الرواية المتجررة ؟ اوصلها الى لاكلو Laclos فى «حداثته

Digital © Al-Kalimah

الملكيــة (jardins du Palais Royal) " . حيث يقتعد واحد مــثل كاميل دومولار Camille de moulins كرسيا ليتحدث عن يوم جميل من أيام تموز . قد تبدأ الامور اذن على هذا النحو برواية لا روائية لتنتهى فيما بعد باتخاذ مجال ضيق . ولهذا فان موريس نادو Maurice Nadeau الذى أطلق كلمة « الرواية الجديدة » فى أول مرة فى نهاية مقالة صدرت سنة 1957 ـــ لم يكن مخطئا عندما اعلن « انه بدأ من عالم غدا فجأة مقروء حيث أخذت تبدو يقظات الضمير وتنطلق الثورات ».

• — •

الادب يخطــو .. خطــوات سلبيــة

ها نحن بعد ثلاثمائة واربع عشرة سنة نجد انفسنا منقادين الى الحديث عن اللارواية التى غدت ترادف فى معناها الرواية الجديدة. ولنا أن نتساءل : افلا يفيد مفهوم اللارواية الثانى عند (سارتر وساروت) نفــى النفــى اذا كان مفهوم اللارواية عند سوريل يفيد النفــى . واذن فالامور اخذت تجرى بمقتضى جدلى (دياليكتيكى) ـــ اذا اردنا أن نضع النقاط على الحروف ـــ وبهذا يكون تاريخ الاشكـــال (او الصيغ) قد جرى ، مجمله ، فى سياق الروايات الهيغلية ، وذلــك مما نعده ، فى أن واحد ، أمرا مثيرا ، وخطيرا ، اذ سنجد انفسنــا فى نهاية المطاف بصدد معرفة مطلقة للرواية .

على أن هذا الخطر غير حاصل اذا نحن امعنا النظر ، فالثنائية السارترية الساروتية تنطوى فى ذاتها على تناقض وحركة. لكن أيــن تتجلى هذه الحركة ؟ لكى نتأكد من ذلك يكفى ان نلحظ الحقد المستمر الذى يثيره دفعة واحدة، كل من سارتر وساروت عند هذا أو ذاك من (أمثال كليبز) ، أو هايدن الذى يقتبل فى قفصه ، ودون أى شعــور

Digital © Al-Kalimah

بالمنافاة كل زائر يعنيه امره). أما التناقض فيتجلى حينما يرفع (بضم الياء) فى وقت واحد، شعاران متباينان : « الادب الملتزم »، من جهة، والرواية الجديدة، من جهة أخرى.

أجل ، أن هذين الشعارين ينبعان من ربوة سارترية واحـــدة، والعداوة الراهنة القائمة بينهما ليست فى واقع الامر سوى صراع بين سارترين اثنين. او بالاحرى صراع بين كتاب مواقف الاول ، وكتاب مواقف الثانى ، بين مقال افتتاحى نشره سارتر فى مجلة الازمنـــــة الحديثة ، وبين مقال نشره فى المجلة الفرنسية الجديـــــدة(1) NRF عدد فبراير 1939 بعنوان : « مورياك والحرية ».

ثمة وشيجة وتدرج بين المثالين دون ريب : فى بادىء الامـــــر لم يكن «الالتزام» عند سارتر سوى تضييق وتأطير للشهادة الانسانية ضمن وجهة نظر. فقد كان يقول فى (مواقف 1) : فى الرواية « لا مجال لمراقب محظوظ، ولن يحصل هذا المراقب لا على قدرة الهية كاملة ولا على معرفة الهية كاملة اينما كان «اما فى (مواقف 2) فهو يقول : ان الملاحظ (ونعنى به الانسان العادى) » « هو قطاع من قابليات التصور قد تمزق على الصعيد الاجتماعى » ، وهذا التمزق ـــ اذا امعنا النظر ـــ هو الذى سيغدو من الوجهة التاريخية والسياسية، وفى معنـــى ثان ، موسوما بسمة « ملتزم » .

من هنا، اذن ، يتبين لنا التناقض : اننا نسجل التأطير بقـــوة ونلح عليه ثم نحطمه، وفى الوقت الذى نشدد على وعى سياسى وتاريخى لكل من الملاحظ وصاحب الاثر، فى نفس الوقت نسعى بالذات الـــى تحطيم دقة التأطير ، ودقة الانغلاق. ان المناضل انسان مقدر ولذا كان أثره اثر منزل من لدن اله . ولم لا ؟ افلا يكون خبيرا بكل شىء ؟، كالاله المورياسى فى الاسطورة، او الاله الرومانـــى فى الـــروايـــة

---

(1) ــ المجلة الفرنسية الجديدة.

Digital © Al-Kalimah

البورجوازية والرواية البلزاكية ؟ الا يحمل معه وصفه الموسوعي رؤيته لكوميديا شاملة ؟

على هذا النحو اذن نحصل فى ميدان الرواية على علاقة مقلوبة أو علاقة « اشتباه » اذا شئنا — بين التأطير والالتزام ، بين دقة الكاميرا ودقة الايديولوجية . ومن هنا ايضا تنفتح الهوة الفاصلة بين الرواية الجديدة » والرواية السارترية .

• — •

قـدرة الادب علـى التلميـح

من وراء هذا التعارض القائم بين « أدب ملتزم » . و « رواية جديدة » تبتدى لنا أشياء يفقد معها هـذا التعارض كـل وجاهتـه وملاءمته فيغدو وكأنه غير ذى موضوع.

أن بيت القصيد فيما يخص تنقل وجهات النظر (اذا احببنا ان نتكلم لغة روب غرييي) ليس هو الموضوعات الكبرى الشهيرة. لنأخذ القنينة او الابريق ، أليست اشياء مثيرة ؟ ان بيت القصيد، لواردنـا أن نفصح عن أنفسنا ، هو انتقال المعنى وانتقال الالتزامات الكامنـة فى صميم المعنى الناشىء . لكن لنا أن نتساءل : ما المعنى ؟

يبدا المعنى حين تكون بعض المقاطع المماثلة هنا (للصوت او الرواية) قد احالتنا واسلمتنا الى مقاطع غائبة عنا بصورة مؤقتة ، نلحظ هذا الامر فى معجمات الاطفال اللغوية حيث توضع الصور فـى جهة ، والكلمات فى جهة اخرى ترتبط الاولى بالثانية بواسطة ارقام .

والكلمات ! ما الكلمات ؟ انها مقطع قد من لغط (او ضجيج) من شأنه أن يحيلنا الى ما لا نهاية من المقاطع الممكنة قد تكون كـل

Digital © Al-Kalimah

الكلمات الاخرى، وقد يحيلنا الى عنوان شهير او كتاب يحمل هذا العنوان(1) ! ».

الا ان المقطع الاول الذى لا نعلم عنه شيئا. الى اى شيء يحيلنا ؟ وبم انشيء ؟ . كيف نحصل على هذا المقطع فى حال تولده وقبل ان يغدو معدا للاعلام والتنقل ؟

من الاجدى ان ننطلق من هذه المقاطع الاولى ، لكن دون اى حكم سبق عليها، ننطلق من المحيط الاضيق، من داره (circuit) محددة ومغلقة موقتا تتأبى عن كل اعــلام .

قد يحالفنا بعض التوفيق لو تتبعنا عملية النطق فى مراحلها الاولى اول كلمة فى الدارة ، ولربما كانت اول كلمة نشاهد ولادتها عبــارة عن Eipon (كما يقول الاغريق) نوعا من نوع « كان يتكلم » " il parlait " ، هل هى اذن ملحمة ؟ épopée ملحمة من المعانى؟ المهم انها طريقة من طرق حمل المعنى الناشيء على الكلام .

لكن اين نبحث عن هذه الطريقة ؟ واين نجدها ؟ قطعا فى كــل مكان ، فالامر يتجدد فى كل مكان ، فى بعض الاماكن المحظوظة بشكل خاص ، حيث تكون المقاطع مكتوبة كتابة مرئية ومن علـــى الارض مباشرة ــ حتى فى اسوأ الاحوال ــ . انها مقاطع تحيلنا الى مقاطع اخرى لم يكتب لها ان تكون واضحة بعد ، لكن هل لنا ان نسمى هذا المكان ؟ قد نسميه برلين على سبيل المثال. لكن من منا كان يعلم ماذا سنعنيه بعد ، مائة سنة ، هذه الهيروغليفية المكتوبة بالتراب .

قد نسميه باريز : ولتكن باريز الحرب الجزائرية، او قسنطينة رواية « نجمة » .

---

(1) ــ لعله يشير الى كتاب سارتر الاخير ــ الكلمات ــ : المعرب .

Digital © Al-Kalimah

اننا ونحن ننطق بهذه الاماكن (والمكان رمز) ، او بالاحرى ان نترك هذه الاماكن تتحدث وتنطق من تلقاء ذاتها ، فلكأننا نعطى الدليل الواضح على ان الادب لا يستطيع شيئا . ان الهيرغليفى هنـــاك (او الجدار بلغة واضحة) ما من كتاب او مؤلف يستطيع ان يزحزحه من مكانه قيد انملة . الامر متعذر مهما تكون محاولاتنا.

ما من اثر امتلك سلطة او احدث ثورة . تلك حقيقة لا يجهلها أحد. لكنا نستطيع ان نقول اذا تقصينا الاثار من بعض « الادب » بامكانه أن يمهد للتحولات التى تقع . فى وسع الادب ان يجعل الثورة التى نمت ثورة ذات امتداد احسن . ولكن ما العمل اذا لم يكن الادب حاضرا هنـــا ؟

ان موت مايكوفسكى مهما تكن اسبابه ودواعيه المختلفة ليس سوى علامة دالة على عبادة معروفة للشخصية، وان نفى MANN و MUSIL يؤكد فى كل حين ان عودة هتلر آتية .

ان الادب او الاثر لا يستطيع صنع شىء وقدرته كلها تكمن فى فى انه يجعل بعض الرموز ناطقة بالنسبة الينا. لكن ، وبدءا من هذه اللحظة ولامد طويل ــ باية رموز يعبر عن نفسه الواقع الذى نحياه. أبالادب ؟ لنا ان نقول اذن باية رموز يدنو منا واقعنا .

الرباط :

أحمد السطاتى

Digital © Al-Kalimah

محمد بيدى

عاطل

(قصة)

لقد تغير وجه الدنيا فى عينيه .. كل شىء غدا جميلا مستساغا .. غيوم السماء الداكنة لم تعد تبعث على التشاؤم .. الزقاق الطويل المظلم ذو عشر عقبات وبرك وحل لا تحصى وحيطان رطبة راهية .. لم يعد يثير فى نفسه هذا الزقاق ادنى اشمئزاز .. جيرانه جميعا أصبحوا طيبين ، حتى « احماد » صاحب الدكان الذى يبيع له موادا غذائية بأثمان جد مرتفعة لكونه لا يستطيع أن يدفع له الفلوس مقدما .. وحتى عبد السلام صاحب الكتاب الذى بلغه عنه همهمات تدعى انه يطمع فى زوجته زهرة .. زهرة التى عادت اليها اليوم فقط مفاتنها السالفة التى تذكره بالايام الغابرة .. وابناءه الصغار .. ابناءه صالح ومحمد وعلى والسعدية كانهم ملائكة الرحمن ! ما الطفهم ! ما اعذب تقاسيم وجوههم .. ويا للمستقبل الذى ينتظرهم جميعا ..

ان سعادته اليوم لا تفوقها سعادة .

واعاد قراءة الرسالة وهو يسير فى طريقه للمرة العاشرة ، وكاد، لفرط غبطته ، يصطدم بعمود كهربائى ..

Digital © Al-Kalimah

ولما اقترب من دكان احماد ، جعل الرسالة فى جيب معطفه الاعلى وترك عمدا جانبا منها بارزا كما يفعل الرسميون بمنديلهم الابيض فى الحفـلات والسهرات .

وبمنتهى طيبوبـة قلبه وصفاء ابتسامه، ضـرب علـى يـد احمـاد صائحـا :

— اجبد اماهم الشلح ..

— آش كاين نتى اشد المصيبة ..

— جيب خمس الاف لرتك ..

— ... ؟

— « ما تخافش .. اجمع حسابك كلو . ربى فرجها والحمـد لله .. شوف » وباصابع خفيفة نشر امامه الرسالة واخذ يوضح له اسم الشركة التى سوف يعمل قريبا لحسابها ويتحدث له فى اسهاب عن تيبة منتوجاتها ، عن ميزانيتها ومؤهلاتها ويتفلسف فى قانونهـا الداخلى والامتيازات الكثيرة التى تمنحها للعمال بدون استثناء . واقتنع احماد بان القضية « ماشى ضحك » . فسخا بالمبلغ المطلوب وزوده كذلك بجميع المواد اللازمة للدار ولم ينس عند توديعه أن يناديه باسمه مرتين مسبوقا بسين السيادة :

— « الله يهنيك اسى ابراهيم .. سى ابراهيم ديالنا .. »

• • •

وبعد يومين، كان ابراهيم قد اعد الاوراق المطلوبة منه .. صورتان وشهادة حسن السيرة من المعمل الذى كان يشتغل فيـه سابقا ونسخة الازدياد واخرى للشاهدة الابتدائية التى اخرجها مـن اطارها الزجاجى القديم حيث كانت عالقة بجدار البيت منذ عشـر سنـوات ...

Digital © Al-Kalimah

وقبل ان يتناول طعام افطاره اخذ قلما وورقة وشرع يكتب وهو يحاول تحسين خط اكثر ما يمكن :

« سيدى المدير ،

كم انا سعيد بجوابكم .. لست ادرى كيف اشكركم على ذلك : ان الفراغ ، يا سيدى ، يقتل النفس بشيب ويدفع الى التشاؤم واليأس .. الرجل العاطل لا قيمة له في الدنيا : هو كالحشرة او كالكلب المسعور لا يقربه احد . لا يحبه احد ، انه يبحث دوما عن العمل ولكن لا احد يأبه به .. العيون تهينه اينما حل والضمائر تستهزىء به ..

سيدى ،

سترون انكم فعلتم خيرا بقبولكم اياى .. لقد سقت سيارات شحن اكثر من خمس سنين وانا قوى البنية .. ولى خبرة بالميكانيك .. ثم انا صبور ولا ابحث سوى عن كسرة خبز صغيرة لاولادى الصغار ... »

ووضع القلم بين اسنانه ليراجع ما كتب ، فلم يعجبه كثيرا اسلوبه ولا خطه لا سيما بعد ان راودت مخيلته صورة وهمية لمدير الشركة في هيئة رجل اوروبى صارم الملامح ذى نظرات سميكة ... واعاد تحرير الرسالة مرتين او ثلاث قبل ان يقر عزمه على ان يذهب عند كاتب عمومى .

والح على هذا الاخير في استعمال كلمات « فيها ادب » ومنتقاة من قاموسه الكبير «لاروس» وطلب منه اكثر من مرة الا يسرع في الضرب على الالة الكاتبة حتى لا يقع في الرسالة ادنى خطأ ثم تناولها منه في رفق بالغ وقبل ان يطويها في ظرف ابيض امضاها وقلبه راجف وعيناه شديدتا الانتباه .. عند اسفل الصفحة كتب اسمه ابراهيم باللغتين العربية والفرنسية وخط تحته سطرا مستقيما نقيا كأى تلميذ مجتهد ...

Digital © Al-Kalimah

وقبل ان يودع الرسالة فى جوف صندوق البريد ، قبلها مرتين مبسملا بعد ان تيقن من ان احدا من المارة لن ينتبه الى اشارته .

• • •

ومرت ايام بعد ذلك .. عشرون يوما كاملة كان يترقب فيهـا كل صباح وكل مساء مجىء ساعى البريد ليسأله ويلح عليه فى السـؤال دون جدوى . وكاد ييأس . لعل رسالته لم تصل . وعزم على ان يكتب رسالة اخرى ، الا انه فوجىء فى صباح هذا اليوم وهو واقف امام دكان احماد بساعى البريد يمد اليه غلافا صغيرا ويبتسم مهنئا .

ودق قلبه بعنف وارتعشت انامله وهى تفض الغلاف الصغير ، وتمنى لحظتها لو انه كان بمناى عن عينى احماد الفضوليتين بل وعن جميـــع عيـــون البشر ..

ثلاثـــة اسطـــر ..

انك مقبول . لا بل هو رفض فى قالب احترام زائف .. «متاسفون .. تكوينكم ناقص .. تحياتنا الفائقة ..» وندت عن احماد صرخة شامتة وهو يشير الى الصورتين المرفوضتين :

ـــ «اجمع تصاورك .. بحالها كثار بزاف .. اشكون بغاهم ؟ »

ولم يجب بشىء بل احنى راسه حتى كاد يغيب بين كتفيه وهرول الى الشـارع الطويل فغاب بيـــن الزحـــام .

اليوسفية ـــ 10 دجنبر 965

Digital © Al-Kalimah

صبري احمد

عشر قصائد للحب والصمت

دبا يجي يا الكبيدة دبا يجي
ب. البيضاوى

(1)

على مرافىء اللذة
على غصون أيام الوحدة
كتبت بالجير
كسكير
كصائد عاد يمضغ الآهات في كمد
ويدفن في الاسى زنده
كتبت بالجير :
« غدا ينور الحب »
وكانت الاحرف
تحت السما ترجف
« تحت السما أحلامنا عصفورة عميا

Digital © Al-Kalimah

تفتحت من صدف النجوم
وتكتسي حب الذين يصبرون الحب في عمر الشماع
غدا ينور المفروس
غدا تعود سفينتي من رحلة الصمت »
لاكن حرف الجير ضاع
لما تدافعت الحياة بلا مذاق
موجا من الزبد
على مرافىء الحزينة حيث عرق في الاسى زندى
لما تحركت الفصون
... فضاع حلمي في خريف الثلج والارهاق

(2)

ملأت فمي بغابة
لليوم والغد والزمان
للموت والاحزان
ملأت فمي بصبح لم ير الانسان
أهدابه
ملأت فمي بجمر لا يلوثه دخان
وكل من يهوى يذيب على الرؤى افراحه
وضياءه وظلامه وعذابه

(3)

وعندما يعود لي السحاب
بنظرتي المثلوجه
ينشق في رئتي جدار

Digital © Al-Kalimah

يــروى التــراب
تتبرعــم الاحــــلام
تتمطى راحتى المكبلة الاصابع منذ ان غــــاب السحاب
فالامس الاشيـــاء ، احتضـــن النهــار

(4)

مللــت قصتنــا التــى لا تزهــر
فى كــل فصــل كــل عــــام
مللت طائرنا المفرد فى الصباح وفى المساء بلا انسجام
مللــت قاربنا الذى لا يبحــر
مرساتــــه مدفونة فى صخرة مسحورة ، تتمرغ الاحلام
تلتاع ، فوق جبينهــا فى كــل فصل كــل عــــام
مللــت خيطــا شدنــى من حملتــى
شــدا عنيفــا جرنــى نحــو الامــام
مللــــت قافلــة الظــلام

(5)

طائــر الفرحـــة لـــم ينــج مـــن الليــل
طائــر الفرحـــة مـــا غــرد فى الليــل
طائــر الفرحـــة ذابــا
فى شــراب الانجــم

—•—

قالــت الانجــم للصمـــت المسافــر
فــوق أكتـــاف ضبابـــه :
« طائـــر الفرحـــة قنديــل

Digital © Al-Kalimah

حبنـــا فيـــه نؤابـــه
نحـــن نحيـــا بنسيـــاه
... نحـــن نفثـــات التهابـــه

(6)

فى عيـــن غانيتى التى احببتهـــا الحـــب الحـــرام
فى عيـــن غانيتـــى تناسلـــت القصائـــد والجيـــاد
لما حفرنـــا الصمـــت جريـــا للغـــد
لما وشمنـــا الصمـــت وشمـــا سر مـــدى
ودفنـــا أغنيـــة البعـــاد
فى نهـــد قافلـــة الظـــلام

(7)

كلمـــات الاطفـــال
كلمـــات المـــوال
ومـــرور النهـــر فى صـــدر التـــلال
وغنـــاء الضـــوء فى وجـــه المدينـــة
ـ كـــل ايامـــى حزينـــه ـ
كلمـــات المـــوال
كلمـــات الاطفـــال
مـــوج حـــب يـــا سفينـــه
تمخـــر الصـــدر واعصـــاب اللســـان
ترتشى غـــول الليـــال
ترتجـــى الصبـــح واصـــداف الحنـــان

Digital © Al-Kalimah

(8)

كأننــا خريطــة بــلا حــدود
كأننــا جمــوع دود
تسير فى الحياة والممات والحياة نحو جرحها الموعود
كأننـا أبريــق اصفهــان
يغص بالالوان والمرجان والحســان
ــ علاء الدين وارتقاءه قصيدة تغيب كى تعود ــ
كأننــا انطلاقــة الشعــاع تمــزق الظــلام
كأننا سفينة الفضاء تمخر الفضاء فى مسيرة الانسان
كأننــا سفينة بــلا ربــان
كأننــا بحــار فى أعماقها حقــول زعفــران
كأننــا فنيــد فى اللســان
لمــا نــذوب فــوق رعشــة الغــرام
لمــا نجــرد الجلود من حديدة السقــام

(9)

... ولو بحثنا فى السمــا والارض عن قرارنــا
ولو قبلنــا بعضنــا وعصرنــا الدمــاء من شفاهنــا
ولو جنينــا حلمنــا المجــروح
كمــا جنــاه جائعــون يقتلــون بالغــرام
الفقــر والسقــام
لحطمنــا الاصنــام
ولكــن الكـــلام
والصمــت والغــرام والجــراح
والصخر اغنيات فتتناها فى الطريق عندما قضينا الليل
مشيــا للصبــاح

Digital © Al-Kalimah

(10)

وتتعـب الطيــور مـن تحوامها على رؤوسنــا
فتنثر الارياش والبراز والدمــاء
والفنـــاء
فنلتقــى ونتفــرق
ونغمض العيــون للسكــوت والفــرام والجــراح
ونحــترق

صبري احمد

البيضاء : جوان 1965

Digital © Al-Kalimah

شيخ الطريقة

مسرحية للكاتب الفرنسى هنرى دى مونترلان
ترجمــة عبــد اللــه العــروى

الاشـــخـــاص :

دون الفارو دابو
دون برنـــال
دون فرناندو دى اوليميضة
اوبريجـــون
فرجـــاس
ليتامانـــدى
الكونت دو صورية (نبيل من خدم الملك ومبعوث خـــاص)
ماريانة ، ابنة دون الفارو
تيـــة (مربية ماريانة)

تدور الاحداث فى آبلـــة (قشتالة) فى يناير 1519

Digital © Al-Kalimah

قاعـــة الاستقبال فى بيت دون الفارو .
الجدران عارية ، ذات لون حديدى ادكن ، بسيطة البناء ، غير مشيدة ، ظاهرة الرضام .
على اليسار ، نافذة ، ذات شباك سميك خارجى ويرى من خلفه ، من حين الى حين ، الثلج يتساقط .
على اليمين ، فى قاع المسرح ، صليب وبقربه ، معلقا ، معطف فرسان طريقة القديس ياغو الرهبانية ، وهو عريض ، من الحرير الابيض ، مطرز ، فى مستوى القلب ، بسيف أحمر ، ذى قبضة فى شكل زهرة الزنبق .
وتسترعى الانتباه ، ثلاثة أشعرة ، منحوتة فى أعلى الحائط، وفوقها خوذ عديدة موضوعة على الجانب ، كأنها عصفت بها ريح شديدة . وهذه الاشعـــرة ذات الزخـــرف الفاخر الغريب ، المضطرب تتفجر على الحائط العارى كثلاث واحات زاخرة فى صحراء قاحلة .
فى وسط المسرح ، طاولة صغيرة تحمل سبعة اقداح وابريقين. سبعة مقاعد وموقد نـــار .
من حين الى حين ـــ اذا اراد المخرج ذلك ـــ تسمع دقـــات جرس ، الا فى المشهد الاخير من الفصل الثالث .

الفصــــــل الاول

المشهد الاول : ماريانة وتية

تـــيـــة : اليوم سبعة مقاعد ، لا غير . لن ياتى من هؤلاء السادة الا ستة . وفى الشهر الفارط كانوا ثمانية .

ماريانة : خمسة منهم اعلموا بالمجىء . ان الثلج يثبط عزم الكثير من الناس .

Digital © Al-Kalimah

تيـــة : خمسة ؟ . اه ! طبعا ، مقعد الضيف الطارق .

ماريانة : يحرص ابى دائما على ان نزيد مقعدا احتياطيا ، فى حالـــة اذا قرر بعضهم المجىء بدون ان يعلم .

تيـــة : الا ان هذا الزائر لا يطرق الباب ابدا . لا . . يا ماريانة !. ليست الثلوج هى التى تمنع الناس . بل هو برد آخر يندس فى القلوب عندما ينزوى المرء عن العطف . ان طريقة القديس ياغو ، كمثيلاتها من جماعات الفروسية ، فى انحطاط ولم تعد نارها تتأجج الا بين جوانح أبيك . ولم ادر لماذا سمى والدك شيخا للطريقة ولم يبق لها رئيس اعظم ؟

ماريانة : عفوا ! منذ خمس وعشرين سنة والملك هو الرئيس الاعظم لجماعات الفروسية الثلاث فى اسبانيا . ما انتزعت غرناطة من قبضة المسلمين الا وحطم الملك فرناندو هذه المؤسسات التى مكنته من تحرير كل اراضيه . ثم بعد ذلـــك اشرف عليها بنفسه . هذا دائما هو جزاء الخير .

تيـــة : واليوم ، لا وجود للفرسان كعصبة . لولا والدك لما تعارف فرسان آبلة فيما بينهم.

ماريانة : كنا، فى سنة من السنوات الغابرة، فى طريق العودة من «بولار» ووقفنا ليلا فى المقر السابـــق لحـــكومة «ايسلة» ، فوجدنا أفواه الابار النضبة وآجور المصلى المتـــداعية قد علاها العشــــب ، والحمير رابطة فى قاعة الاجتماع . وفى ظلام الليل كنت استمع الى النهر القاتم الجارف يحـــدثنى ان سيله يجذب كل شىء ويبتلعه.

تيـــة : اليوم خمسة وفى الشهر المقبل سيكونون ثلاثة ، خاصة اذا تمادى الفارو فى تقشفه . لماذا لا يدعوهم لتناول العشاء كما يفعـــل غيـــره من النــــاس ؟

Digital © Al-Kalimah

ماريانة : **يرى ابى وقاحة فى ان تمزج مشاكل خطيرة بهموم** البطن . انه يثنى على عادة العرب، اذ يحضر صاحب الدار بين ضيوفه ولا يشاركوم الاكل .

تية : وكيف يقدم لهم الماء وفى المخبأ خمر لا بأس بهما ؟ نعم ، اعرف السبب وهو صفاء الماء الذى يرمز الى صفاء القلوب. وهل كان الفرسان الاولون يتقززون من شرب الخمر ؟

ماريانة : (وهى تشرب من الماء) **.. ما ابرده ! انه ليختطف النفس !** وكم اقوم ابى حين لا يعدل افرسانه عنه شرابا .

تية : دعى الماء ، **والا ضرك الوجع . ها هى تشرب ثانيا فيها ..** تشرب الماء البارد والصقيع يعم الدنيا خارج الدار .

ماريانة : انى لا اشرب الماء بل آكله اكلا ، يا سيدتى ! ماء بارد ويحرقنى حرقا كأنى التهم النار . انه ماء سان لوكار .

تية : هو بالاحرى ماء حوضنا .

ماريانة : ماء الينبوع من سان لوكار .. اتظنين انى لا اعرف طعمه ؟ اختار ابى لهؤلاء السادة ، من بين المياه ، اصفاها. (تشرب) مرة اخرى .. آه! ان فيه لشيئا يشغفنى حبا .

تية : ان العرب تقول : «ان الاسد والعصفور لا يرتويان» الا هى .! ما هذا الغبار ؟ طبعا لا يستطيع خادم واحد ان يطبخ ويفتح الباب وينظف الدار . ما دام الفارو يرفض خادما ثانيا . آه !. لا شك ان الدار كانت انظف فى عهد والدتك .

ماريانة : هذه الامور لا تهم ابى !

تية : ولذا تعيشين فى غرفة تقشرت جدرانها ولم ترمم واتسعت كواتها عرض الكف . زهيرة مثلك تعيش فى وسط الانقاض !.

ماريانة : ابى لا يرى مثل هذه الاشياء واذا رآها احبها . اما انا فانها حقا لا تزعجنى ، وادرك تمام الادراك انها تبدو غير مهمة لرجل جدى

Digital © Al-Kalimah

تيية : وما المهم اذن ؟

ماريانة : الروح يا امراة ، الروح !. اما علمت ذلك ؟ يعتقد ابى ان لا شيء اهم ، بل اولى ، بل احق ، مما يطرا فى سرائر النفوس .

تيية : وانا يبدو لى ان الاديرة تهتم برعاية النفوس ولا يوجد فى الدنيا موضع انظف منها . ان الفارو يدعى الفقر . لكن من المسؤول ؟ اى رجل ، وضيعا كان ام رفيعا ، يحتال عليه ويغبنه حقه وهو عنه لاه .

ماريانة : انت تعلمين انه يفرح اذا سلب منه متاع .

تيسة : انه فقير ، بلا شك ، او على الاقل يتصرف تصرف الفقير واحيانا يبدى سخاء مفرطا .

ماريانة : هذا، تنفيذا لشعارنا الاقدم «اعطيت وساعطى» الكرم هو الرمز الوحيد لنبله .

تيية : وقصة الملحة ؟ هل تعرفينها ؟

ماريانة : قصة الملحة ؟

تيية : الملحة التى اختلسها النبيل الفقير .

ماريانة : لا اعرفها .

تيية : ساقصها عليك اذن !

ماريانة : اذا كان دور ابى فيها شريفا ولم يقصها على ابى فله فى ذلك سر . لا اريد اذن ان اعرفها .

تيية : لا ! لا ! ساحكيها لك .. انى ارغب حقا فى روايتها . منذ شهر ، مثل بين يدى والدك نبيل فقير . لم تكن بينهما اية صلة . فطلب النبيل من ابيك ان يساعده على أن يفوز بوظيف . وعندما انصرف ، لاحظ الفارو ان الملحة الفضية التى كانت فوق الدولاب قد اختفت . وبعد ايام قلائل عاد النبيل وهو يلبس حذاء جديدا عوض الحذاء الخلق المرقع

Digital © Al-Kalimah

الذى اتى به المرة الاولى . وها الـــفـــارو يأخذ الملحتين الباقيتين ، فيغلفهما ويمدهما الى الرجل قائلا : لم اجد لك عملا ، تفضل ، خذ هاتين لوجه الله واستغفر لى المولى . فقبل الرجل يديه ، باكيا واعترف بفعلته .

ماريانة : لو اردت، يا امراة ، ان احكى لك مثل هذه الافعال ، لضاق عن روايتها الليل كله .

تـــيـــة : رجل عطوف مثل هذا العطف ويهملك هكذا !! يعاملك بمثل هذه الخشونة ، التى هى من اخص طبائع الـــذكور والتى تأتى على جميع العواطف ! اترقبين وصول هؤلا السادة ؟

ماريانة : اود لو سبقهم دون برنال .

تـــيـــة : آه ! ما بال دون برنال لا يحتفظ بابنه قريبا منه ؟ لو جاء دون خاسنتو مع ابيه ، لما برحت ، يا ابنتى ، النافذة !

ماريانة : انـــت فى خطأ ، بلا مراء . لن افعل ذلك ابـــدا .

تـــيـــة : رغـــم حبـــك له ؟

ماريانة : لست احبـــه ، حين تجهرين بحبى .

تـــيـــة : بـــل انـــت تحبينه .. واتمنى ان يقنع دون برنال ودونيه ازاتله اباك ويرضى ابوك بهذا القران ، حتى تعيشى فى بيت رجل لا يتعجب كلما رآك بكساء مهلل ، استعمل مدة سنتين متتابعتين ، قائلا : «اوه ! ما هذه الجبة الانيقة ؟!

ماريانة : وها دون برنال بعينه ! دعينى ، يا امراة . اود ان اكلمه

المشهـــد الثانى : دون برنال وماريانة

ماريانة : سعيدة برؤيتك ، يا دون برنال .

برنال : وانا ايضا سعيد . ان جمعنا اليوم يهمك . سيقلع ثلاثة منـــا الى العالم الجديد .

Digital © Al-Kalimah

ماريانة : لست من بينهم ولا دون خاسنتو ؟

برنال : حالتى الصحية لا تسمح لى بالذهاب . اما خاسنتو فوظيفه، فى مجلس الهند، يحتم عليه الحضور فى بلد الرليد . لكننا نود ان تقنع والدك بـأن يرحـل .

ماريانة : .. بـأن يرحـل ؟

برنال : نحن جميعا فى حاجة الى ان يرحل الى امريكا ، انت وانا وخاسنتو ، من اجل سعادتك . لا لمدة طويلة . ابدا . عليه ان يتغيب سنة او سنة ونصف ، لا غير . وانت ستقومين، مدة غيابه ، عند عمتك كريستينة . كما كان قديما يلجـأ النساء الى دير كوزلوس ، عندما كان يعتـزم ازواجهن الاعتكاف . ولقد اقتنعت بحجج عديدة ان والدك ، فى مثل هذا الظرف القصير ، يستطيع ان يـجـمع ثروة هائلة . سأساعده كل المساعدة لينال مبتغاه . سأبين لك ، يـا ماريانة ، يوما من الايام ، لماذا يجب ان تتحسن حالتك المالية، اذا اردنا عقد زواجك .

ماريانة : افهـم ذلـك جـيـداً .

برنال : احقا تفهمين ؟ والله انت اعقل من ابيك !

ماريانة : لكن لا تقل له انه سيذهب الى هناك من اجل الثروة . انت تعلم الى اى حد يشمئز من الماديـات .

برنال : لا بالطبع . سنظهر له اسبابا عديدة . حينما يصل هؤلاء السادة، وسأسر فى آذنهم الا يتكموا فى موضوع المال ، وهم كلهم فوق ذلك يجهلون ان لى فى الامر غـرضا . اما اذا اخفقنا فلا بد من ان اصارح اباك بدون التواء .

مريانة : سر رويدا ، بحق الله عليك . فاجأته ذات ليلة وهو نائم ازاء مـوقد النار . فرأيـت على محيـاه امارات لم اتعهدها من قبل، مليئة بالحزن والالم . وكانت راسه منحنية على كتفه،

Digital © Al-Kalimah

كراس المسيح على الصليب . كان يهمهم بعض الكلمات . فانحنيت عليه وسمعتها ..

برنال : وماذا كانت ؟

ماريانة : كان يقول : اسبانيا !. اسبانيا !. آه يا اسبانيا !.

المشهد الثالث : ماريانة ، دون برنال ، الفارو

برنال : ما اكثر الثلوح ، ايها الصديق ! لا يشق المرء طريقه اليك الا بجهد النفس .

الفارو : اتعلم ماذا تذكرنى هذه الثلوج ؟ تذكرنى مشهدا فى قصيدة من قصائد الفروسية الالمانية . نشاهد فيها فارسا ــ لعله من الفرسان التتونيين ــ واقفا امام قصر حصين وقد رفع الجسر المتحرك . نشاهده مطرق الراس ، خاضعا تحت الثلوج المتهاطلة ، ينتظر أن يتساوى الجسر لانه اتى لفداء ابنته المعتقلة فى القصر . تمر الساعات ويطول الانتظار والخدم يهزأون به ، ويرمونه بكور الثلج والعظام اليابسة ، وهو لا يزال واقفا ينتظر . هو ، الرجل الفخور ، الضارى ، الذى ينزل كالصاعقة على الاعادى ، يصبر لهذا كله من اجل ابنته الصغيرة .

برنال : وانت يا صديقى ، هل تفعل مثل ما فعل من اجل ماريانة ؟

الفارو : بالتأكيد !

برنال : حقا ؟

الفارو : بالتأكيد !

برنال : بالطبع ، هذا ما كنت انتظره منك ، لكنى سعيد بعد ان سمعته منك !

(يطرق الباب)

Digital © Al-Kalimah

ماريانة : ما الاصدقاء قد وصلوا !

الفارو : الاصـــدقــاء ؟

ماريانة : فـــرسان الطريقـــة .

الفارو : فرسان الطريقة اقرانى لا اصدقائى . (واضـــعا يده على ذراع بـــرنــــال) باستثنائه هو

(تخرج ماريانة ويدخل دون اوليمضة)

المشهد الرابع : الفارو ــ برنال .. اوليمضة ثم فرجاس ودون اوبريجون معـــا ثـــم لميتامـــانـــدى

الفارو : كنت اقول لبرنال ان هذه الثلوج تذكرنى بالفارس التيتونى امام القصر الحصين .

اوليمضة : اما انا، فانها تذكرنى بثلوج جبال نفادة التى كانت تعلونا ، هذه سبع وعشرون سنة خلت ، عندما دخلنا غرناطـــة فاتحين . كنا فى شهر يناير والسماء صافية كسماء الصيف والثلوج كانها اكفان اعدائنا ، نشرت فى الفضاء ونـــذرف دموعا حلوة من غمرة الفرح ، لان اسبانيا كانت قد عادت حقا اسبانيا ..

الفارو : ليلة فتح غرناطة رأيت الله فى رداء الوغى كالشجرة ، علقت عليها السيوف بعد عقارها .

برنال : وها ، معنا الان مجتمعين ، الرجال الثلاثة الذين شاهدوا حصار غرناطة ، وشاركوا فى العمل الهائل الذى رد للبلاد استقلالها !

اوليمضة : ما فهمت قط ، سبب انزواء دون الفارو تحت جدار بازة وهو فى العشرين من عمره بعد ان نال كل مجد فى الجهاد ؟

الفارو : حاربت سنتين ، بعد ذلك ، فى المغرب .. لكن المغرب !!

Digital © Al-Kalimah

اوليضة : يروى انك نطقت هناك ، ليلة افتتاح تلمسان ، بكلمة غريبة. قلت : «النصر مضمون لكنه لا قيمة له »

الفارو : ممكن . لست اذكر . **(يدق الباب فيدخل فرجاس ودون ابريجون معا .. فرجاس اعرج .. تحيات).**

أوليضة : لم يتغيب الا ليتاماندى .. لاحظت دائما ان الشبان أغلب من يتأخر عن المواعيد

: وهذا طبيعى . الشباب دائما متأخر .. شيئا ما !

(يدق الباب ثم يدخل ليتاماندى .. تحيات .. ثم يقف كل فارس وراء مقعده حول الطاولة .. اشارة الصليب ... يقرأون باعلى اصواتهم «جئت ايها الرب» .. ثم يجلسون ... صمت).

برنال : عندى رغبة ، اتقدم بها بين يدى الفارو والرفاق الحاضرين. تساءل قدامى ذات يوم شخص ، ساكتم اسمه ، وكانت تتابعه سلطة ، لن اسميها هى الاخرى ، تساءل عن مكان يلجأ اليه . فقلت له : لماذا لا تقصد دير كذا . فأجاب : يسلموننى. فاحسست بفظاعة هذا الجواب وارقت الليل كله ، قائلا فى نفسى : لن يقر لى قرار ما لم اتيقن ان كل هارب ، مهما كانت جريمته ، يمكن ان يقصد ديرا من اديره طريقتنا ، واثقا بحسن الاستقبال ، آمنا على نفسه . ان وافقتمونى فلنفعل اللازم .

ابريجون : سأذهب بعد اسبوعين الى بلد الوليد ، ومن المتوقع أن ارى الاسقف الاعظم . سألح عليه بان يكلم مديرى اديرتنا.

الفارو : تفعل معروفا.

ابريجون : واثناء مقامى فى بلد الوليد ، ساقوم بمهمة أخرى . هذا دون خوان دى انكورينة ، فارس من طريقتنا ، فر من سجن

Digital © Al-Kalimah

ملك وهران ، بعد ان اقسم بشرفه انه ان يفر . مـــاذا ترون ؟

ألفارو : احقا اقسم ؟

ابريجون : أجل ! اعترف بذلك .

ألفارو : كل ضابط سجين اقسم بشرفه انه لا يفر ثم فر ، عاد بلا شرف ، مهما كانت الظروف . اقترح ان نلتمس من الملك ان يسقط اسم انكورينة من لوائح طريقتنا .

ليتاماندى : واذا رفض الملك .

ألفارو : ان طريقتنا هى التى تحدد مستوى اخلاق افرادها ولا دخل للملك فى ذلك . ليس من شأن الملك ، وهو فى سن التاسعة وهو الدخيل علينا ، ان يعرف اين الخير وايـــن الـــشر فى اسبانيا . ملك فى سن التاسعة .. وامرد !! سنوقع ملتمسا ونودعه اياك يا ابريجون .

أوليضة : انى سأتكلم باسم الجميع . والكل موافق على ما سأقوله . سيذهب ثلاثة منا الى امريكا مع اسطول فوينلال الـــذى سيقلع خلال الشهر المقبل . وهم ابريجون الذى سيعين فى رتبته المعتادة اى قائد محلة فى جيش الاحتلال ، ثم ليتاماندى الذى سيعضد فوينلال بشجاعته واقدامه ، بعدما ابلاهمـــا فى حروب ايطاليا . واخيرا سأذهب انا . لم اعد اتحمل المعارك ، لذلك سأنزل فى كوبا ، حيث تفضل على الملـــك ووعدنى بولاية هناك .

برنال : لو كانت تسعفنى صحتى ، لابحرت معكم .

فرجاس : وانا ايضا ، لولا هذا الجرح اللئيم .

ابريجون : انهزمت يوما اسبانيا انهزاما شنيعا واحتلها المسلمـــون بكاملها . وفيما خضع الجمهور الاعظم لسيطرة الغاصبين ، اعتصمت شرذمة من فلول الجيش الوطنى بالجبال وبدأت

Digital © Al-Kalimah

تناوش المحتلين وتسترد ارض الوطن شبرا شبرا ، فى حرب دامت ثمانية قرون ، وانتهت منذ عشرين سنة بتحرير الوطن تحريرا تاما . لقد اضطلع الشعب وحده بهذا التحرير، متكلا على نفسه ، لا يساعده أسياده بل يخونونه احيانا . وفى سنة 1492 ، السنة التى انهار فيها سلطان المسلمين على ارض اسبانيا ، فى تلك السنة بالذات ، اكتشف كولوب جزيرة سان سالفادور . وها هى اليوم شرذمة اخرى من الاسبان تعتزم غزو امبراطورية واسعة كما كانت بالامس شرذمة نواة جيش التحرير . ان الله ، رب السماوات ، قضى ان تكون هذه السلسلة متصلة الحلقات ، لا خلل فيها، حلقة بعد حلقة . اذا كانت فى الدنيا معجزة خارقة ، فوالله لهى هذه !!

اوليضة : ولنطرق صميم الموضوع . لقد سميناك ، يا دون الفارو ، بشيخ الطريقة ، لنعبر على عطفنا واحترامنا لك . أو لم تعتقد انه شرف لك ان ترافقنا الى امريكا ؟ أنت تعرف المثل القائل : « فى اسبانيا . دائما حرب صليبية » وهناك الحرب الصليبية الجديدة !

برنال : ولنوضح الامور فى الحال . هذا السفر ، لا يعنى فى حق رجل مثلك ، التجارة فى الذهب او فى الجواهر ، فى الضيع او فى الرقيق . انى اعلم انك تفضل ، اقتداء بسنة المسيح العظمى ، الاستعطاء على التجارة . انك ستشارك فى الحملة كمحارب ، وتطأ أرض العالم الجديد ، شاهرا سيفك . وعندما تسنح اول فرصة سيعهد لك الملك بمهمة ادارية . اجعل الامر فى ذمتى وخذ مليه وعدا منى . واذا كنت اليوم راغبا من الحروب كلها ، وهذا شىء طبيعى ، فستسند اليك ، بدون ان تتعب، وظيفة فى احدى المقاطعات المستقرة الهادئة،

Digital © Al-Kalimah

التى افتتحت منذ زمن طويل . لقد علمت ان عدة وظائف ستتشغر قريبا فى كوبا وجمايكة .

الفارو : تدفق ، يا سيل العبث .. تدفق !

برنال : ماذا تقول ؟

الفارو : معذرة ! لكنى ارى نفسى مسخرة فى هذه الغزوات كلها .

ليتاماندى : لكننا نختنق فى آبلة .

الفارو : ما أجمل النجوم ، لمن يراها من قلب زقاق ضيق !

فرجاس : او لم تحن الى المجد وقد لبست حلته ، فيما مضى ، ساطعة باهرة ؟

الفارو : ان كنت حظيت يوما بشهرة ما ، فسأقول عنها ما نقول عن أمواتنا : « الله اعطى ، الله استرد ، وليكن ما اراد » انى اليوم احن الى العزلة وحدها ..

فرجاس : هذا ما يزيد فى عمر مهمتنا .

الفارو : نعم ، انى اعلم كم يتضايق المجتمع من رجل غير طموح .

أفريجون : رجل غير طموح وفى مستهل العمر !؟ وماذا تفعل اذن بحياتك ؟

الفارو : أترقب نهاية كل شىء .

فرجاس : يحيى حياة اهمال وفى وسعه ان يرتقى العلى . ان من يغبن نفسه، ييأس منه الناس حتى الاصدقاء. ليس على ان اقرظ شخصا اذا كان هو لا يعتز بنفسه .

الفارو : يحلو لى ان ابقى مغمورا .

اوليفضة : ان كانت شهرتك الشخصية لا تعنيك ، فاعتن بسمعة طريقتنا التى تخوض اليوم حربا مقدسة .

الفارو : حربا مقدسة ! تلك الحرب ؟ ان الاهالى هم الذين يخوضون حربا مقدسة . ان الفروسية، فى حقيقتها ، الذود عن الحقوق المهضومة ولو ذهبت الى امريكا لقمت بحماية الهنود ، اى

Digital © Al-Kalimah

حسب مفهومكم ، لارتكبت خيانة . انكم تعرفون قصة ذلكم المقاتل الاسباني الذى شنق بتهمة الخيانة لانه ضمد جروح احد الهنود . والله ، لهذه افظع الفظائع !

اوليميضة : قد ذهب هناك عدد من فرسان الطريقة ، منهم كورتيس وبزارو ولم يرو ابدا رايك .

ليتاموندى : ومعروف ان القديس ياغو ظهر بنفسه للاسبان فى احدى المعارك ، على صهوة جواد ابيض .

الفارو : نعم ، انى اعلم ان خيانات مقيتة تختفى وراء شعار القديس ياغو . اعلم ان اوفاندو ، عندما استدرج الملكة الهندية خراجوة البريئة الامينة ، التى لم تكن تضمر لنا الا الخير ، الى الفخ المنصوب لها . كانت اشارة الشروع فى تنفيذ الجريمة الشنعاء ان يضع يده على وسام فارس القنطرة الذى يمثل الرب الاعلى . فشنقت الملكة وحرق من كان معها من الشيوخ المعجزة . والله ليأخذنى ، ازاء ما تخفيه جماعات فروسيتنا فى امريكا ، غثيان ينبو عن كل تعبير !

ابريجون : ليست السماحة من سمات الافكار السامية .

فرجاس : كيف تتجنب الافراط والغلو شرذمة حملت الاستيلاء على على الوف والوف من الناس ؟

الفارو : وما الداعى لذلك ؟

ابريجون : مجد اسبانيا .

فرجاس : ان مجد اسبانيا كان فى اخضاع عدو هاجمنا وبات وجوده وصمة لعقيدتنا وروحنا ، ثلمة فى كياننا وتقاليدنا . اما الاستيلاء على بقع نائية فما احقره من عمل ، زهيد المنفعة ! ان من يريد ان يغير احوال المناطق المحتلة فى حين ان الوطن احوج الى الاصلاح كمن يريد تغيير العالم المحيط به وكل شىء فى نفسه يشكو الخلل ، وهو فوق ذلك عمل بلا نتيجة ! ان الملوك يكدون ليفتتحوا ممالك جديدة ثم يعجزون عن

Digital © Al-Kalimah

سياستنا وحمايتها . فلا تزيدهم قوة بل تزيدهم ضعفا واخيرا يطردون منها صاغرين ، بعد ان يذوقوا من اجلها اشـــد العذاب ، لان امريكا خارجة عنا لا محالة . أن المستعمرات تؤسس للضياع ، تنشأ وحتفها مكتوب على الجبين .

اولميضة : لا تنس ان الوفا والوفا من الهنود كانوا سيخلدون فى نار جهنم لو لم ينقذهم الاسبان بدينهم الحق .

الفارو : لكن الوفا من الاسبان سيخلدون فى جهنم لانهم وطأوا ارض الهنود .

اولميضة : ماذا تقول ؟

الفارو : كل شيء علق بامريكا عفن وتكدر . كلما مست امريكا شيئا، دب اليه الفساد . وما المرض المروع الذى يعود به مواطنونا من هناك الا رمز ذلك الفساد . سيكون اكبر ثناء فى المستقبل لرجل « لم تشارك قط فى شؤون امريكا » ..

اولميضة : دون الفارو !!

ليتامندى : انما تستهزىء بنا !

الفارو : بعد أن احتلت اسبانيا امريكا ، تسلط عليها حب المـــــال وانتشرت التجارة بكل شيء وفى كل شيء . عم النفاق واهمل وصل القربى وفشل الاستغلال المقيت، استغلال الانسان للانسان . منذ احتلال امريكا ونجم اسبانيا فى افول .

ابريجون : لننسحب ! لم يبق لنا موجب للاجتماع !

فرجاس : اعترف اذن ، انك كنت تترقب هذه اللحظة التى تيأس فيهـــا اسبانيـــا .

الفارو : لنعرض عن اصل الداء . مهما يكن السبب ، ان اسبانيـــا اليوم فى حالة اريد ان اشارك فيها باقل نصيب . اسبانيا .. مذلتى الكبرى ! لا حاجة لى فى زمن يعتبر الشرف جريمة والحلم جريمة والاحسان جريمة ، ويتعرض فيه كل شيء نبيل الى الهوان والاستهزاء . اينما توجهت ، ارى اعلى

Digital © Al-Kalimah

المناصب يحتلها حثالة الناس ، والنصر مضمونا للارازل السفهاء . ارى الافك سلطانا يتبعه وصيفاه . الغضب والفتك ، وشقيقاه المتصافحان العجز والمكر . ارى المخدوع يكرم ويبجل خادعه . اترونني اختلق ام اتجاوز الواقـــع ؟ تذكروا قولة الملك فرناندو وهو محتضر « ابناء عصرنا ، ينحطون كل يوم من اسفل الى اسفل ».

فرجاس : هذا حكم كل عصر على نفسه !

أبريجون : والفروسية فى أعلى عهودها، فى القرن الثانى عشر، كانت رغم ذلك تستدعى الاصلاح.

الفارو : صحيح، كل شىء يستدعى الاصلاح وفى كل زمن.

فارجاس : وانت المسيحى الصادق، عليك ان تتقبل اقصى ما تؤول اليه عقيدتك . منذ ثلاثة آلاف سنة والشعوب تهلك ، منذ ثلاثه آلاف سنة والشعوب تستعبد. ولا يمكن ان يعتبر هـــذه المصائب مآسى حقا. ان كنت توافق نفسك، فليس لك الا امة واحدة، امة الاصفياء المقربين .

الفارو : ولى أمة اخرى احتفظ بها لتألم نفسى .

برنال : تديـــن زمنك كالرجل العجوز. تتكلم كأنك فى الثمانين ولما تدرك الخمسين. ثم انك تغلو كثيرا. لو شاركت فى الوقائع اكثر مما تفعل ... لو كنت اعرف بما يجرى ..!

الفارو : أعرف ما يجرى . كلما اخرجت رأسى من الصدفة التـــى اعيش فيها طرتتنى الدنيا. ليست اسبانيا اليوم عندى الا شيئـــا استجيـــر منه.

برنال : طيب .. لكن الدنيا معوجة فى نظرك لكثرة ما انعزلت . ثــم انك تنبذ هذا الزمن لانك لا تراه على وجهه الحقيقى.

أبريجون : على عتبة العهد الجديد تتوقف ! .

الفارو : على عتبة العهد الجديد تتوقف ! .

فارجاس : لنفرض انه من البطولة ان يعـــتزل المرء ، وفاء لعقيدته ،

Digital © Al-Kalimah

اليس من البطولة كذلك ان يشارك فى شؤون الدنيا، مهما حزت فى قلبه ، ليرجح فيها كفة تلك العقيدة ؟ لانها ان لم تتجسد فى الواقع ، بقيت بلا نفوذ ، كبير أم صغير .

برنال : ثم الفضل ليس فى التصلب بل فى المرونة، لا ان يهرب الانسان ليكون عفا على يسر بل يمكث بين الناس حيث العسر.

الفارو : سئمت هذه الفرقة الدائمة بينى وبين العالم من حولى . لقد اعيانى السخط والتذمر وكلى اشتياق الى حياة اناس غير محتالين ولا انذال ولا اغبياء . كانت النجاسة فى الماضى تلطخنا من الاجانب الدخلاء وهى اليوم داخل انفسنا، استبدلنا مصيبة بمصيبة لا غير . آه . . يا رب ! لماذا لم توافنى الموت تحت اسوار غرناطة حيث كان الوطن فى صفائه وكماله ؟ لماذا عمرت بعد تلك اللحظة ؟ لماذا تركتنى، يا رب، حيا بين الاحياء .

برنال : ما بك، يا صديقى ؟ لم تكلمنا قط بهذه اللهجة .

الفارو : كان فرسان قبرس يحملون عقدا طرز عليه حرف الصاد، يرمزون به الى الصمت. وليس فى هذا البلد اليوم رجل خير صامت. توجد رهبانيات صامتة وكان على ان اترأسها . لماذا حملتمونى على الافصاح ؟

اوليمضة : ترهب، يا دون الفارو . . هذا هو ما يوافقك فى المستقبل.

الفارو : صدقت . لست ادرى ماذا يمنعنى سوى فتور العزم وقصور الهمة ؟

ابريجون : والاجمل بالمرء ان ينسحب من الدنيا فى صمت، بغير ذم ولا قذف . ما اسفل كلامك عن الدنيا !

الفارو : هل تعلمون معنى الصدق ؟ هل تعلمون (يرفع معطف الطريقة، المعلق على الحائط فوق الصليب) انظروا الى هذا المعطف، ابيض ناصع كالجليد والسيف المطرز فى مستوى

Digital © Al-Kalimah

القلب، احمر كانه متلطخ بالدم . والمغزى ان الصدق دائما فى النهاية جريح، دائما فى النهاية صريع . انه بالدوام هدف للرمح الذى طعن قلب المسيح على الصليب (يقبل اسفل المعطف ! بعد تردد يقبله ايضا اوليضة وهو الاقرب منه). اجل ان الاخلاق السامية تنهزم دائما فى النهاية وما التاريخ الا رواية انهزاماتها المتجددة . غير ان الذين يحملون رسالة الذود عنها، لا يحق لهم ان يساعدوا على اضعافها . مهما انحطت طريقتنا ، انها ما تزال تابوت ما بقى فى اسبانيا من اباء ومروءة . واذا لم تكونوا مقتنعين بذلك فاستقيلوا ! لا حق لنا فى الوجود ، اذا لم نكن افاضل الناس . اما انا فحياتى كلها اشمئزاز ونفور ، لقد من على الله بطبع يتحمل بوئرة الكراهة والتقزز . نفور ونحيب يملان حياتى باستمرار . وانتم تستخفون بالشنائع وتتجوزون عن الفضائع ، تعاهدونها وتظاهرونها ، يا رجال الدنيا ، يا فرسان الدنيا !

ابريجون : (لفرجاس، بصوت خفيض) يقول هذا لانه غبى .

الفارو : كان على الحدود، قبل افتتاح غرناطة، جبل فوقه حصن يقصده المريدون. هناك لاخر مرة سمعت تغريد الطير ولن يسمعه احد من بعدى.

ليتاماندى : تغريد اى طير ؟

الفارو : تسجيع الحمامة الوهاجة التى تلهمنا الحق فى اقوالنا والواجب فى اعمالنا ، لنحافظ على مروؤتنا.

فرجاس : لم يغزنا الفكر الجديد بعد فتح غرناطة فحسب بل وفد علينا من ايطاليا منذ مائة سنة .

ابريجون : ليس فارس سنة 1519 هو فارس سنة 1000 . لم تعد العقول تصدق بوجود الجنة والاغوال.

الفارو : بل الاغوال ما زالت موجودة ولم تكثر ابدا مثل ما تكثر اليوم.

Digital © Al-Kalimah

انها تزاحمنا . تطغى علينا وتغشانا . هنا ! وهنا ! وهنا ! ويل للامناء الاوفياء .

برنال : لنرجىء الاجتماع ..

الفارو : (فى غاية الهيجان) ويل للاوفياء ! ويل للاوفياء !

برنال : لنرجىء خاتمة الاجتماع الى دورة أخرى.

الفارو : (وقد هدأ فجاة) ويل للاوفياء ! ويل للاخيار ! ويل للاخيار !

(يخرج فرجاس وبريجون بسرعة وحزم)

برنال : (الفارو) ايها الصديق ، لابد من ان احدثك راسا لـــراس. أيمكن ان تستقبلنى غدا ،

الفارو : تفضل على الساعة الرابعة زوالا.

برنال : الى الغد اذن ، ان شاء الله .

الفارو : الى الغد ، ان شاء الله . (يخرج برنال)

المشهــد الخامــس : الفارو .. ليتاماندى .. اوليميضة

ليتامندى : انى مرتبك .

الفارو : ولمـــه ؟

ليتامندى : اتساءل هل يحق لى ان ارحل أم لا .

الفارو : ارحـــل..

ليتاماندى : رغم كل ما قلته .

الفارو : ارحل. انت ابن التاسعة عشرة وترغب فى الرحيل والشبان فى مثل سنك ينتهون دائما بتحقيق رغائبهم.

ليتاماندى : هذا احتقار من حقك أن تحتقرنى هكذا .

الفارو : ليس من حقى ؟ اتجرؤ وتتحكم فى حقوقى ؟

ليتاماندى : لن ابقى فى هذه المدينة المقيتة ، مقبورا بين الاموات . الا انى الان ساغادرها وقلبى مرتاب قلق. لقد فتر نشاطى . هل انت واثق على الاقل بصحة رايك لكى تنفث فى قلبـــى هذه الحيرة.

Digital © Al-Kalimah

الفارو : انا واثق تمام الثقة بصحة رايى .
ليتاماندى : اه ! لقد ملات فؤادى قنوطا ويأسا .
الفارو : وهذا ما كنت اريد (ينصرف ليتاماندى مرتابا) ، الشباب، زمان الاخفاق.

المشهد السادس : الفارو ، اولميضة.

اولميضة : ستقول لى ايضا ارحل ؟
الفارو : او تتردد انت ايضا ؟
أولميضة : لقد زعزعت ايمان الشاب منا والمسن . آه ! لانت بحق شيخ الطريقة .
الفارو : لست شيخ احد ولا شيخ اى شىء . انما انا خادم من خدام الله .
اولميضة : لماذا شجعته على السفر .
الفارو : لان امره غير مهم . ان الشبان لا اقدام لهم ولا احترام ولا فهم. عليهم اذن بمغامرات البحر ، هى وحدها توافقهم . اما المغامرات الرفيعة ، فهى موقوفة على الرجال اقراننا. ولا مغامرة رفيعة الا فى سرائر القلوب . لا تبرح انت، يا اولميضة !
(يندفع اولميضة نحو الفارو . يتعانق الرجلان فى صمت ثم ينصرف اولميضة).

المشهد السابع : الفارو وحده

الفارو : يا نفس ، اما زلت حية ؟ واخيرا ها انا وانت ، يا نفس، وجها لوجه !

ستــــار

(البقية فى العدد القادم)

Digital © Al-Kalimah

الصديـق زنيبـر

نظرة سريعة عن البطالة في المغرب

البطالة مشكلة من المشاكل الاجتماعية الرئيسية التي يتخبط فيها المغرب حاليا، وبوجه التحديد هي مشكلة الطبقة الكادحة من الشعب التي تتلهف على العمل دون ان تجده . فما اسباب هذا المشكل؟ ما تطوراته الحالية ، او بعبارة اخرى : ما نتائجه التي ظهرت حتى الان؟

قبل التعرف على هذه الاسباب وتطوراتها ، نـود أن نحدد المعنى المقصود «بالعاطل» ، انه بتعريف وجيز الشخص الذي يريد ان يضمن بيع قوته العضلية او الفكرية دون ان يتمكن من ذلك .

1 ـ اسبـاب البطالـة :

اسبابها متعددة ، منها :

1) نزوح سكان البادية الى المدن : وهذا السبب نفسه يعود لاسباب متشعبة ومتعددة ، فالنزوح النهائي الى المدن غالبا ، ما بكون مهيئا بنزوح وقتي . فالشبان ــ على الخصوص ــ يتجهون نحو

Digital © Al-Kalimah

المناطق الصناعية والمعدنية ، وغالبا نحو المدن ، وذلك لمدة شهور أو سنوات ، وشيئا فشيئا تصبح اقامتهم في المدن نهائية .

اما اسباب هذه الهجرات فهي اساسا اقتصادية ومنها :

أ) قلة الاراضي المستغلة بالنسبة لاغلب العائلات القروية وتقسيمها بصورة ضيقة جدا ، وذلك ما نجده في اقليم دكالة مثلا .

ب) ظروف العيش الصعبة التي يلاقيها سواء «الخماس» او العامل الفلاحي في البادية .

ج) عدم استقرار المحاصيل الزراعية في المناطق القليلة المطر .

د) اجور المدن المغربية ونوعية الحياة المخالفة لما اعتاد عليه البـــدوي .

وتجدر الاشارة الى ان مدينة الدار البيضاء تتلقى النازحين القرويين اكثر من بقية المدن المغربية.

أما مناطق الهجرة فهي جنوب المغرب (الواحات الصحراوية) ومناطق اقليم سوس والاطلس الصغير ، ومن السهول الاطلسية حيث الأراضي غير كافية (عبدة دكالة والشاوية) ، او من الرحامنة حيث تختلف المحاصيل الزراعية حسب الظروف المناخية ثم من الريف ونواحيه

واما مدن الاستقبال فهي غالبا المدن الصناعية : الدار البيضاء — في الدرجة الاولى ، والمحمدية والقنيطرة ومكناس وآسفي وخريبكة والرباط — سلا . . ولناخذ مثلا لمدن استقبال النازحين ، مدينة الدار البيضاء انها القطب الرئيسي الذي يتوافد عليه سكان البادية ، فقد ازداد عدد سكانها بصورة سريعة ومدهشة . ففي مدنها القصديرية يتكدس الوافدون الجدد اذ ما بين سنة 1952—1960 بلغ عدد الوافدين عليها كل سنة 15.000 بدوي في المتوسط ، بمعنى انها زادت في هاته الفترة التي تبلغ ثمان سنوات : 200.000 نسمة ، بينما كان نصيب باقي مدن المغرب من النازحين القرويين في نفس الفترة ضعف هــذا العدد ، اي انه توافد على الدار البيضاء وحدها نصف عدد النازحين بينما اقتسمت سائر المدن المغربية الاخرى النصف الاخر .

Digital © Al-Kalimah

واذا كان عدد سكان الدار البيضاء قد بلغ سنة 1952 حسب الاحصائيات 682.388 نسمة فانه تم تصنيفهم على هذا الشكل :

8 ٪ فقط من مواليد المدينة

17٪ وفدوا عليها من مدن اخرى

75٪ نزحوا اليها من مختلف البوادى .

2) النقص فى المعامل وتوقف العمل نهائيا فى بعض المعامل الاخرى :

ان النقص فى التجهيز الصناعى فى المغرب يزيد من حدة مشكل البطالة فهذه الافواج الضخمة من المهاجرين الى المدن لا تجد امامها معامل ومصانع لتشغيلها بل على العكس يتم تسريح كلى او جزئى للعمال من المعامل الموجدة وهذا ما يزيد الطين بلة :

ففى الفترة ما بين (1962 — 1964) ، وحسب التصريحات الرسمية ، تم طرد 10 000 عامل من المؤسسات الصناعية الموجودة فى مدينة الدار البيضاء .

ويؤدى هذا العمل الى عدة نتائج — زيادة على بطالة هؤلاء العمال — منها ان مستوى الانتاج الصناعى يضعف ، ويتلو هذا قلة فى حركة النشاط التجارى وذلك تبعا لنقص الانتاج .

3) الزيادة المطردة فى عدد سكان المغرب :

وهذه مشكلة تجعل المغرب فى الصف الاول مع الدول المطردة الزيادة فى عدد سكانها .

فما بين سنة (1953 — 1963) ازداد عدد سكان المغرب بنسبة 20 فى المائة .

اما ما بين سنة (1960 — 1964) فقد كان عدد سكان المغرب سنة 1960 يقارب 000 625 11 بينما بلغ عددهم سنة 1964 حوالى 000 500 12 اى ان عددهم ازداد بمقدار 000 875 نسمة فى ظرف اربع سنوات

Digital © Al-Kalimah

وتسجل الاحصائيات الاخيرة ان عدد السكان يتزايد بمقدار 350 000 نسمة كل سنة . وهذا المقدار يعتبر مـــن اكبر مقاييـــز الزيادة في العالم .

ولتقريب خطورة هذه الزيادة الى الاذهان نقول ان تزايد عدد سكان المغرب هو : 3 مواليد احياء كل خمس دقائق ،

وهناك مشكل آخر يضاف الى المشاكل السالفة هو وضعية التعليم الحالية في المغرب ، فطرد التلاميذ من المدارس يزيد من حدة المشكل حيث يخرج الى الشارع كل سنة 000 50 مراهق تجاوزت اعمارهم 14 سنة ، ويتركون بلا تعليم وبلا عمل . وبذلك يندرج هؤلاء بدورهم في صف العاطلين .

2 ـــ تطورات المشكل ونتائجه الحاليـــة :

1) نقص الانتاج الزراعي في البوادي : ولعل من اسباب هذا النقص الاساسية هو نزوح خيرة البدويين الى المدن ، فهجيـرة شباب البوادي ، تشكل خطرا على الانتاج الزراعي بحيث لا يظـــل في البادية سوى الشيوخ والعجـــزة ، وهؤلاء لا يستطيعون القيام بالاعمال الزراعية الشاقة بما ترزح تحته من وسائل تقليدية عتيقة . وستكون النتيجة طبعا انخفاضا مروعا في مستوى الانتاج الزراعي في البادية وتراكم العاطلين عن العمل في المدينة .

2) زيادة انتشار مدن التصدير في المدن وضواحيها :

ولنأخذ مثالين لمدينتين قصديريتين حتى نتمكن من التعرف على الوضعية المجهولة لهذه الدور :

أ ـــ حي ابن مسيك بالدار البيضاء : وهو اضخم مـــدن التصدير الموجودة بالمدينة ويتلوه في الاهمية (كريير سانطرال) وقد تطور هذان الحيان ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية وذلـك

Digital © Al-Kalimah

نتيجة لتوافد المهاجرين من البادية على المدينة ابان الدفعة الصناعية التى حصلت فى المدينة .

ويضم (حى ابن مسيك) وحده حاليا اكثر من 000 180 نسمة يقيمون كلهم فى «براكات» من الخشب او « الكرطــون » او القصدير . وكثافة السكان مدهشة حيث تبلغ 700 نسمة فى الهكتار الواحد . ويلاحظ فى هذا الحى ، وجود دور قصدير ذات طابقين

ب ـــ دوار الدوم بالرباط : كان عدد سكان هذا الدوار سنة 1916 ما بين 600 الى 800 نسمة . اما منذ هذه السنة الى سنة 1954 فقد بلغ عدد سكانه 000 7 نسمة ، ويلاحظ ان 70 فى المائة منهم قدموا من جنوب المغرب .

أما اليوم فقد تضخم عدد سكانه بصفة مدهشة وقامت به احياء قصديرية جديدة .

3) اطراد ظهور مشاكل اجتماعية خطيرة : وهذه المشاكل متعددة ومتشعبة ومنها السرقة والنهب والتى تشهد عليها الجنـــح والجنايات المطروحة على المحاكم .وبالنسبة للنساء ، تفاحش ظاهرة العهر، وذلك لعدم توفرهن على العمل.

واذا لم تكن البطالة السبب الوحيد فى وجود هذه المشاكل، فان لها اليد الطولى فى الزيادة من حدتها وتكاثرها ، وفى اعتقادنـــــا انها كثيرا ما تكون تابعة للمسائل الاقتصادية، فيتحسن الوضـــع الاقتصادى ، غالبا ، ما تتحسن الوضعيات الاجتماعية الاخرى .

ســـلا ـ الصديـــق زنيبـــر

Digital © Al-Kalimah

محمـــد عابـــد الجابـــرى

أزمـــة الاشتراكيـــة فى البلدان المتخلفـــة :

تـــطور الرأسمـــاليـــة.. وقضايا الماركسية المعاصرة

حاولنا فى المقال السابق (1)، ان نلم بشىء من الايجاز باهـــم مقولات الاشتراكية العلمية اى المادية التاريخية، والتحليل الماركسى للاقتصاد الرأسمالى . وقد اشرنا فى نهاية المقال الى ان الاســـاس النظرى للاشتراكية العلمية قد تمت صياغته من طرف ماركس وانجلز قبل قرن من الزمن، وان المائة عام الماضية شهدت تطورات مهمة غيرت من مجرى الواقع والاحداث، وبالتالى خلقت وضعية جديدة، مما جعل معطيات الواقع تتغير كذلك، وما جعل تفسيرات وتنبؤات ماركـــس وانجلز تتطلب عملية تكملة وملاءمة مع الواقع الجديد وفق مقـــولات المنطق الجدلى حتى تعبر تعبيرا حقيقيا صادقـــا على الوضعيـــة او الوضعيات الجديدة.

(1) ـــ «أقلام» ـــ العدد الثانى ـــ السنة الثانية . ص. 23

Digital © Al-Kalimah

والواقع ان انحراف مجرى الاحداث عن الاتجاه الذى رسمه ماركس استنادا على الوقائع التى عاشها، قد جعل كثيرين من اتباع ماركس نفسه والمعجبين بطريقته، بالاضافة الى خصومه، ومفكرى البورجوازية .. يشنونها حملات واسعة على ما يسمى بتنبؤات ماركس، حملات تختلف درجاتها، وحدتها، ومقاصدها، باختلاف هوية ونوايا القائمين بها او الموحين بها.

وهكذا قامت تيارات انتقادية ونقدية مختلفة، شهد ماركس نفسه بعضها فى اواخر ايامه، وامتد بعضها الآخر الى بعد وفاته بسنين، ونحن هنا لا نرمى الى كتابة تاريخ للفكر الاشتراكى، فبوسع القارىء ان يشفى غليله فى هذا الموضوع، فى عشرات من المجلدات، وبمختلف اللغات . وانما الذى نرمى اليه فى هذا المقال الذى يشكل الجزء ما قبل الاخير من القسم الاول من هذه الدراسة، هو الاشارة بايجاز الى أهم المعطيات الجديدة التى شهدتها هذه الحقبة من الزمن التى تفصلنا عن الربع الاخير من القرن التاسع عشر.

والواقع انه من غير الانصاف ان نلوم ماركس على عدم صدق ما يسمى بتنبؤاته، فماركس لم يجعل من نفسه نبيا فى يوم من الايام كما انه لم يسبق له قط أن ادعى أنه أخذ على عاتقه كشف الغيب، او رسم خطوط المستقبل بجزئياتها وتفاصيلها. والذين يأخذون على ماركس عدم صدق «تنبؤاته» انما يفهمون الماركسية فهما غير فهم ماركس لآرائه وافكاره : اى انهم يفهمون آراء ماركس على انها عقيدة نهائية يجب الايمان بها والتسليم بمضمونها جملة وتفصيلا. ان الماركسية يجب ان ننظر اليها، لا على انها عقيدة نهائية، بل على انها طريقة ومنهج، وبعبارة أخرى فالماركسية كما اكد على ذلك ماركس نفسه هى « دليل للعمل » لا اقل ولا اكثر.

وهكذا فان الاستنتاجات التى انتهى اليه ماركس، لم تكن الا نتيجة تحليل علمى جدلى للواقع الذى عاشه ماركس. وليس من عيبا

Digital © Al-Kalimah

اطلاقا فى ان تفقد هذه الاستنتاجات بريقها فى ظل أوضاع تختلف عن الاوضاع التى أوحت بها وأدت اليها. واذن، فيجب أن ننظر الى آراء ماركس ، خاصة منها الاستنتاجات والتنبؤات، على انها فقط « التعبير النظرى عن النشاط العملى السائد » أيام ماركس. والا فاننا سنقع فى تناقض وفى جمود فكرى، فنخضع الواقع للنظرية فى حين أن المنطق الجدلى يقتضى دوما اخضاع النظرية للواقع، اى تجنب كل مفهوم سابق جاهز عن الحياة وتطورها، وانما اخضاع مفاهيمنا لتطورات الحياة وصيرورتها.

لقد أكد لينين على هذه الحقيقة اذ قال : **« على الماركسى أن يأخذ بحسبانه الحياة الحية، والاحداث الدقيقة للواقع، عليه اذن ان لا يتشبث بنظرية الامس التى لا تشير فى أفضل الاحوال، شأنها شأن كل نظرية ، الا الى ما هو أساسى وعام، والتى لا تفعل شيئا سوى الاقتراب من فهم تعقيد الحياة.»**

••

ان اهم ما يؤخذه على ماركس هو أنه لم يصادف الصواب حينما اكد على أن الثورات الاشتراكية ستقوم وستنجح فى **البلدان الاوروبية الاكثر تقدما** ، حيث توجد صناعة قوية وبروليتاريا واعية منظمة وبورجوازية تتخذ اكثر فاكثر وضعيا طبقيا معاديا للطبقة العاملة .

والواقع ان ماركس كان قد اكد على ذلك غير ما مرة، وانه كان يرتقب بلهف نشوب الثورة وانتصار البروليتاريا فى أكثر البلدان الاوروبية تقدما خاصة منها المانيا. كما انه كان يستبعد فى نفس الوقت امكانية نشوب ،وبالاحرى نجاح الثورة الاشتراكية فى بلد متخلف توجد فيه كل من البروليتاريا والبورجوازية فى وضعية متخلفة.

ان الثورة الاشتراكية فى نظر ماركس وانجلز تتطلب الوصول الى مستوى معين من تطور قوى الانتاج ، الشيء الذى يؤدى الى

Digital © Al-Kalimah

علاقات انتاجية جديدة ، ومن ثمة الى صراع طبقي حاد. لم يتوقع ماركس وانجلز، اذن، قيام الثورة الاشتراكية فى بلد لم يصل الى درجة عالية من التقدم الصناعى. ولم يكن اى منهما يخطر بباله، على الاقل فى الحقبة التى صاغا فيها أهم عناصر نظريتهما، ان الثورة يمكن ان تقوم فى بلد متخلف اقتصاديا كروسيا القيصرية مثلا.

لقد اكد انجلز على ذلك فى رده على تكاتشوف الذى قال بامكانية قيام ثورة اشتراكية تربية فى روسيا عام 1874. قال انجلز : « **ان الثورة التى تسعى الاشتراكية الحديثة لتحقيقها هى باختصار، انتصار البروليتاريا على البورجوازية، واقامة نظام جديد للمجتمع عن طريق هدم كافة المميزات الطبقية. وهذا لا يحتاج الى بروليتاريا تحمل عبء الثورة فحسب، بل الى بورجوازية تتطور على يدها قوى الانتاج الى الحد الذى يسمح بالقضاء على كافة المميزات الطبقية.. ولن يصبح فى الامكان زيادة الانتاج الى الحد الذى يجعل ازالة الفوارق الطبقية تقدما حقيقيا، الا بعد الوصول الى مستوى معين من تطور قوى الانتاج، بل الى مستوى رفيع جدا بالقياس الى الظروف الحالية .** »

ان تأكيد ماركس وانجلز على امكانية، بل ضرورة، قيام الثورة الاشتراكية فى البلدان الاروبية الاكثر تقدما وتطورا ، وان استبعادهما لامكانية نجاح الثورة الاشتراكية فى البلدان الاقل تطورا، شىء واضح لا يحتاج الى مزيد من التدليل والاستشهاد. **فلا ماركس ، ولا انجلز ، كان يخطر بباله ان تقوم شعوب الشرق المستعمرة بحمل لواء الاشتراكية والثورة وتتقاعس عن ذلك شعوب اوروبا المتقدمة .** بل ان ماركس كان يرى ان الانتصار الحتمى للبروليتاريا الاروبية ، هو الذى سيمكن شعوب الشرق المستعمرة من الانعتاق من الاستعمار. وهكذا فطالما لم تنجز البروليتاريا الاروبية ثورتها الاشتراكية، فان تحرير الشعوب المستعمرة قضية لم تكن ذات موضوع فى نظر ماركس.

Digital © Al-Kalimah

وهنا لا نحتاج الى تسجيل خطأ تقديرات ماركس وانجلز فى هذا الصدد ، بل المهم من ذلك ان نبحث فى المعطيات الجديدة، فى الاسباب التى ادت الى اتجاه التاريخ، اتجاها غير الاتجاه الذى رسمه ماركس. وهذا بالضبط، ما يشكل صميم موضوع هذا المقال.

سنتعرض هنا اذن الى مسألتين اساسيتين :

الاولى : ـ لماذا لم تنجز البروليتاريا الاروبية المتقدمة ثورتها الاشتراكية. وبعبارة اخرى لماذا وكيف استطاعت الراسمالية المحافظة على نفسها، خلافا لما رسمه لها ماركس من مصير.

الثانية : ـ لماذا قامت الثورة الاشتراكية ، ونجحت فى بلد كروسيا متخلف بشكل كبير واسع. بالنسبة لالمانيا مثلا التى لم تنجز ثورتها الاشتراكية .

اننا هنا، لن نتعرض الى كل ما قيل ، فى الموضوع، فذلك اكبر من يحيط به فرد واحد، ومن ان يشمله مجلد واحد، بله مقال قصير. وانما سنقتصر على تلخيص نظريات ثلاث، تبدو لنا جدية الى حد كبير، وهى : التفسير اللينينى المعروف ، وتفسير ستراتشى المفكر الاشتراكى البريطانى التطورى، وتفسير دجيلاس « الشيوعى المرتد ».

1 ـ الراسمالية والاستعمار

درس لينين التطورات الجديدة التى طرأت على النظام الاقتصادى الراسمالى بفضل التوسعات الاستعمارية التى غيرت من شكله . درس ذلك دراسة علمية دقيقة معززة بالارقام والاحصائيات الكثيرة ، فى كتاب صغير نشره عام 1916 ثم أعاد طبعه عام 1917. واسم الكتاب « الاستعمار اعلى مراحل الراسمالية ».

حلل لينين فى هذا الكتاب المرحلة الجديدة من الراسمالية وابرز خواصها وقوانين تطورها والنتائج التى ادت اليها.

Digital © Al-Kalimah

ان المرحلة الجديدة من الراسمالية، التى يحدد لينين ظهورها بشكل تام، ببدء القرن العشرين ، لم تعد تلك الراسمالية القديمة التى تقوم اساسا على الحرية والمنافسة، وانما اصبحت راسمالية ذات صفات جديدة اهمها : الاحتكار وتمركز الانتاج .

لقد انقلبت المزاحمة الى احتكارات، ونتج عن ذلك ان اخذ الانتاج يتخذ صبغة اجتماعية اكثر فأكثر، ولكن اذا كانت جماعية الانتاج يتسع نطاقها اكثر فاكثر ، فان التملك قد بقى خاصا. بل لقد اصبحت وسائل الانتاج الاجتماعية ملكا خاصا لعدد ضئيل من الافراد .

واذا كان من خواص الراسمالية بوجه عام، فصل ملكية راسمال عن توظيف الراسمال المالى(1)، اى فصل صاحب الدخل الذى يعيش من عائدات راسماله النقدى، عن الرجل الصناعى والمشتركين معه فى ادارة راس المال، فان الاستعمار او سيطرة راس المال المالى الذى هو مرحلة الراسمالية العليا، هو الذى يبلغ فيه هذا الفصل مقاييس هائلة، الشىء الذى يجعل راسمال المالى، يسيطر على بقية أشكال الراسمال. « وهذا يعنى ظهور عدد ضئيل من الدول تملك الباس المالى بين سائر الدول الاخرى » . . «فالراسمالية قد ابرزت الان حفنة . . من الدول فى منتهى الغنى، والقوة، تنهب العالم كله بمجرد« قص الكوبونات. »

لقد كانت الراسمالية القديمة تقوم اساسا على تصدير البضاعة، حيث كانت السيادة التامة للمزاحمة والمنافسة. اما فى الراسمالية الحديثة فان سمتها الاساسية هى تصدير راس المال.

---

(1) — المقصود براسمال المالى، هو راسمال الموجود تحت تصرف البنوك والذى يستخدم فى الصناعة، الشىء الذى ينشأ عنه تمركز اكثر واحتكار اكبر ومن ثمة اندماج البنوك فى الصناعة.

Digital © Al-Kalimah

ويشرح لينين ذلك فيقول : « فى عشية القرن العشرين تشكل نوع آخر من الاحتكارات : فى البدء اتحادات رأسمالية احتكارية فى جميع بلدان الرأسمالية المتطورة، ومن ثم وضع احتكارى لبعض بلدان فى منتهى الغنى، بلغ فيها تراكم الرأسمال مقاييس هائلة.. وقد حدث « فيض من رؤوس الاموال » ضخم فى البلدان المتقدمة. وبديهى ان مسألة فيض راس المال ما كانت لتطرح لو استطاعت الرأسمالية تطوير الزراعة المتأخرة الان عن الصناعة تأخرا كبيرا فى كل مكان، لو استطاعت الرأسمالية رفع مستوى معيشة جماهير السكان، المستوى الذى بقى فى كل مكان متاخما للجوع والتسول، رغم التقدم التكنيكى المذهل.. وما ظلت الرأسمالية رأسمالية، لا يوجه فيض الرأسمال الى رفع مستوى معيشة الجماهير فى بلاد معينة، لان ذلك يعنى تخفيض ارباح الرأسماليين ، بل يوجه الى رفع الارباح عن طريق تصدير الرأسمال الى الخارج، الى البلدان المتأخرة .. والربح مرتفع فى المعتاد ، فى هذه البلدان المتأخرة ، لان رؤوس الاموال قليلة ، واسعار الارض منخفضة نسبيا ، والاجور زهيدة ، والخامات رخيصة . »(1).

معنى ذلك كله ان الرأسمالية استطاعت أن تمدد أجلها بفضل ما منحه اياها الاستعمار من امكانيتين هامتين :

1 — امكانية الحصول على المواد الاولية بأثمان بخسة ، وعلى اليد العاملة الرخيصة.

2 — امكانية تصريف منتجاتها ، وفائض الرأسمال، الى البلدان المستعمرة حيث عملت وتعمل منذ اول يوم على خلق ظروف ملائمة فى هذه البلدان الهدف منها تيسير استهلاك الشعوب المستعمرة لاكثر ما يمكن من منتجاتها الاستهلاكية التى لا تزداد الا ضخامة.

(1) — لينين — المرجع المذكور . ص، 79 — 80

Digital © Al-Kalimah

ما هو تاثير ذلك كله على وضعية البروليتارية الاروبية .

ان الراسمالية تجنى من ذلك ارباحا طائلة تستعملها ليس فقط فى توسيع نشاطها الاقتصادى الاحتكارى ، بل ايضا فى تعطيل وشل الطاقة الثورية للطبقة العاملة.

ان هذا الربح الاضافى الهائل الذى تجنيه الراسمالية من الاستعمار، يستعمله الراسماليون فى بلادهم « **لرشوة زعماء العمال والفئة العليا التى تكون ارستقراطية العمال . والراسماليون يرشون هذه الفئة، بآلاف الطرق، من مباشرة ، وغير مباشرة وعلنية ومستورة(1)»** .

« ان هذه الفئة من العمال الذين تخلقوا بطباع البورجوازية أو « أرستقراطية العمال » وهم بورجوازيون صغار تماما بطراز حياتهم ومقاييس أجورهم وبكامل نظرتهم للعالم هى .. سند البورجوازية الاجتماعى الرئيسى ، لان هؤلاء عملاء حقيقيون للبورجوازية فى حركة العمال ، متعهدون عمالا فى خدمة طبقة الراسماليين (2) »

◆ ◆

من هذا العرض الوجيز لامهات افكار لينين التى سطرها فى كتابه المشار اليه، يمكن ان نلخص التفسير اللينينى لعدم صدق نبوءة ماركس فيما يتعلق بانجاز البروليتاريا الاروبية المتقدمة ثورتها الاشتراكية ، فى ثلاث نقاط رئيسية :

1 ـــ دخلت الراسمالية فى مرحلة الاستعمار طورا جديدا اساسه تمركز قوى واحتكارات حادة. وتصدير للراسمال المالى ،

(1) ـــ لينين : نفس المرجع . ص. 12

(2) ـــ لينين : نفس المرجع . ص. 12

Digital © Al-Kalimah

ولفائض الانتاج. وهذا ما يساعدها على حل ازمة فائض الانتاج ولو بصفة مؤقتة.

2 — جنت الراسمالية من تصدير راسمال المالى وفائض الانتاج الى البلدان المستعمرة ارباحا طائلة، انقذتها ولو مؤقتا من مفعول قانون انخفاض معدل الربح.

3 — استعملت الراسمالية قسما من هذه الارباح فى رشوة زعماء ومسيرى الطبقة العاملة فى بلادها ، مما ساعد على شل نضال البروليتاريا والتخفيف من حدة الصراع الطبقى. وتتجلى هذه الرشوة فى اشكال منها الرشوة الصريحة ومنها الامتيازات والزيادة فى الاجور .

ذلك هو السبب فى عدم قيام ونجاح الثورات الاشتراكية فى البلدان الاروبية خلافا لما تنبأ به ماركس، لانه — فى نظر لينين — لا يكفى لقيام الثورة الاشتراكية أن يتم التقدم الصناعى، والاقتصادى بل لابد من وضع ثورى حقيقى.

والواقع ان لينين ، لا ماركس ولا انجلز، هو الذى وضع نظرية الثورة الاشتراكية. ونحن هنا لن نستعرض بتفصيل هذه النظرية وانما سنقتصر على أن ننقل للقارىء مقطعا رائعا يشرح فيه لينين بايجاز أسس نظريته حول الثورة .

يقول لينين : **« ان الماركسى لا يشك مطلقا فى أن الثورة مستحيلة دون وضع ثورى. ولكن ليس كل وضع ثورى يؤدى الى الثورة. فما هى بمامة دلائل الوضع الثورى ؟ يقيننا اننا لن نخطىء اذا اشرنا الى الدلائل الثلاثة الاتية :**

1 — ان يستحيل على الطبقات السائدة الاحتفاظ بسيادتها دون اى تغيير، ان تنشب هذه الازمة او تلك فى القمة ، اى تنشب ازمة فى سياسة الطبقة السائدة تسفر عن صدع يتدفق منه استياء الطبقات المضطهدة وغضبها. فلكى تنفجر الثورة لا

Digital © Al-Kalimah

يكفى عادة « ان لا تريد القاعدة بعد الان » انتعيش كما فى السابق، بل المهم ايضا، « ان لا تستطيع القمة ذلك » .

2 — ان يتفاقم بؤس الطبقات المضطهدة ويشتد شقاؤها اكثر من المألوف .

3 — ان يتعاظم ، للاسباب المشار اليها آنفا، نشاط الجماهير التى تستسلم للنهب بهدوء فى زمن «السلم» ، ولكنها المدعوة فى زمن العاصفة، سواء بدافع من مجمل احوال الازمة، ام بدافع من «القمة» نفسها، الى القيام بنشاط تاريخى مستقل.

ودون هذه التغيرات الموضوعة المستقلة، لا عن ارادة هذه الكتل او الاحزاب وتلك فحسب، بل ايضا عن ارادة هذه الطبقات او تلك، تستحيل الثورة بوجه عام .

ومجموع هذه التغيرات الموضوعية يسمى بالضبط وضعا ثوريا.

ان الثورة لا تنشا من كل وضع ثورى، وانما تنشأ فقط ان انضم الى جميع التغيرات الموضوعية المذكورة آنفا، تغير ذاتى» ، واعنى به قدرة الطبقه الثورية على القيام باعمال ثورية جماهيرية قوية بحيث انها تحطم (او تصدع) الحكم القديم الذى لن يسقط ابدا ، حتى فى فترة الازمات، ان لم « يعمل على اسقاطه(1)».

2 — الراسمالية والضغط الديمقراطى :

وكما فعل لينين، تناول جون ستراتشى ، — ولكن من وجهة نظر مختلفة — التطورات التى اعترت الراسمالية الحديثة ، وذلك فى كتابه القيم « الرأسمالية المعاصرة » (1)

---

(1) — لينين انلاس الاممية الثانية، ص. 13 — 14 . موسكو دار الطبع باللغات الاجنبية.

(1) — جون ستراتشى ، الراسماية المعاصرة، ترجمة عمر الديراوى. طبع دار الطليعة — بيروت.

Digital © Al-Kalimah

يبدأ ستراتشي ، بتأكيد ان الاقتصاد الرأسمالي انما قام اساسا على التنافس. ولكن « **عملية التنافس بقوتها الذاتية الكاسحة، وتمشيا مع المنطق الذاتي فيها، ، تظل ، على الدوام، تخلق وحدات اكبر، واقل عددا لتستعملها في معركة التنافس ذاته .** »

وهكذا فان التضخم في الحجم (= وحدات اقتصادية واسعة السيطرة والنشاط) والتقلص في العدد (= اندماج شركات عدة في شركة واحدة) يغير من طبيعة الرأسمالية ذاتها. وذلك للاسباب الاتيـة :

1 — « عند نقطة معينة في تضخم حجم الوحدات الاقتصادية وتضاؤل عددها، يغدو مدراء الوحدات القليلة المتبقية قادرين على التأثير في الاسعار بدلا من التأثر بها. »

وهكذا يتدهور قانون المنافسة ، ويمكن ان يتنافس المدراء في مجالات مختلفة من نشاطهم — كالدعاية ، والعروض .. « الا في ذلك الشيء الضروري لاعادة الطريق القديمة التي كانت تعمل الرأسمالية بموجبها. وهي المنافسة في السعر على التحديد. »

2 — والسبب الثاني « هو أن عملية التمركز في وحدات كبيرة الحجم قليلة العدد تغير من طبيعة الرأسمالية ، لان تلك العملية تسير بشكل غير متسق : ففي داخل البلد نفسه تتركز بعض ميادين الاقتصاد بسرعة اكبر من غيرها.

3 — عدم الانساق الخارجي في التطور، ذلك ان عدم الاتساق في التطور في عملية التمركز يقلّب ميزان القوى في المنافسة بين دولة واخرى، كما يقلبها بين الرأسمال والعمل وبين الصناعة والزراعة داخل البلد الواحد نفسه. كما ان ظهور الاوليغوبولي (= وحدات كبيرة الحجم قليلة العدد) قد عزز الصناعة بالنسبة للزراعة، فانه أيضا قد قوى مركز الاقطار الصناعية بالنسبة الى الاقطار غير المتطورة .

Digital © Al-Kalimah

4 ــ الارتباط مع الدولة : اى ان الدولة تغدو مرتبطة ارتباطا وثيقا بعملية الانتاج حينما وحيثما تصل عملية التمركز فى وحدات كبيرة الحجم قليلة العدد درجة معينة . ان الدولة لم تعد تمثل دور الحكم، بل اصبحت تلعب دورا يزداد اهمية فى « لعبه الانتاج » .

5 ــ التقدم التكنولوجى والتراكم.. ان هذه الوحدات الكبيرة الحجم والقليلة العدد تعمل على تراكم الراسمال الجديد الضرورى للتقدم التكنولوجى بطريقة جديدة. فليس الافراد هم الذين يقومون بالادخار كما كان الامر فى المراحل السابقة من الراسمالية، بل ان المؤسسات العملاقة تقوم بمهمة الادخار عن طريق عملية بسيطة، وهى عدم توزيع نسبة كبيرة من الارباح على حملة الاسهم. واستعمال تلك الارباح كراسمال جديد.

6 ــ الانفصال بين الملكية والادارة. لقد كان الراسمالى من قبل يملك أدوات الانتاج، ويشرف على الانتاج بنفسه، اما اليوم فمدراء الشركات هم الذين يديرون العمل ولكنهم لا يملكون ، وانفصال الملكية عن الادارة تغير من طبيعة الاسلوب فى التسيير ومن طبيعة الاهداف المتوخاة من ذلك.

7 ــ اصبح الاقتصاد خاضعا اكثر فاكثر للسيطرة ، « فهو اليوم بالقياس الاجمالى، اسهل على السيطرة مما كان عليه الحال سابقا.»

• •

تلك اهم خصائص المرحلة الجديدة من الراسمالية فى نظر ستراتشى، وهى خصائص غيرت من طبيعة الراسمالية الى درجة « ان المرحلة النهائية للراسمالية شيخلقها شكل جديد للنظام الراسمالى، شكل يجعل من عدم التوفيق فى استعمال اللغة ان ندعوه راسماليا

Digital © Al-Kalimah

اصلا ». يخلص ستراتشى من هذا التحليل للمرحلة الجديدة للراسمالية، الـــى نتائج أهمهـــا :

أ) ان المنافسة لم تقض على الراسمالية كما توقع ماركس، لان الراسمالية تطورت تطورا غير من طبيعتها.

ب) ان الافقار المطرد للعمال لم يقض علـــى الراسمالية، لان الافقار المطرد كما تصوره ماركس لم يحدث، بل حدث تحسن فى وضعية العمال سواء من حيث الاجور او من حـــيث التعويضات والخدمات الاجتماعية.

ج) ان الضغط الديمقراطى جنب الراسمالية الانهيار امام الافقار المطرد. يقول ستراتشى « ليس الامر فى حقيقته أن مستوى حيـــاة العمال قد « ارتفع » ، فمثل هذه العبارة تلوح وكأنها تتضمن عمليـــة اتوماتيكية، يقوم بها النظام الراسمالى نفسه. **اما ما حـــدث فعلا ، فهو عكس ذلك تماما : اذا استطاع العمال بفضل مجهودات سياسية وأخرى نقابية طالنا اكثر من قرن من الزمن ، ان « يرفعوا » مستوى حياتهم قسرا رغم أنف النزعات الاقتصادية فى النظام الراسمالى.. (1)**»

لقد ادى الضغط الديمقراطى الى رفع مستوى حياة العمـــال . ويتجلى ذلك فى :

أ) التشريع الذى يعود نفعه المباشر على العمال . فقد ازدادت حصة العمال من الدخل القومى، سواء على شكل نقود (الزيـــادة فى الاجور) او على شكل الخدمات الاجتماعية (التعليم والصحة ..) التى تمول من الضرائب التصاعدية المفروضة على الراسماليين.

ب) تعدد الاجراءات التى مكنت العمال من ان ينظموا انفسهم وينشئوا لهم منظمات ذات قدرة على المساومة ضد مستخدميهم.

---

(1) ــ المرجع المذكور ص. 133

Digital © Al-Kalimah

وهكذا، فان نضالات العمال والقوى الديمقراطية ضد الراسمالية قد انقذت النظام الراسمالي، وهي قد فعلت ذلك « لا لانها جعلت ظروف العمال مقبولة نحسب، بل ايضا لانها ابقت السوق الضروري لتصريف السلع الجاهزة مفتوحا ». ثم يخلص ستراتشي من ذلك كله الى نتيجة نهائية ، **وهي انه اذا بقيت الامور تسير على نفس الوتيرة التي سارت عليها، واذا حافظت الديمقراطية على نفسها، وتعزز الضغط الديمقراطي اكثر فاكثر ، فان النتيجة هي ان الديمقراطيه ستقضي على الراسمالية .**

تلك خلاصة لآراء ستراتشي في الراسمالية المعاصرة، وللنتائج التي وصل اليها. ونحن هنا ليس في نيتنا مناقشة هذه الآراء، وانما سنرجيء ذلك الى فرصة اخرى، تاركين المجال الان ، لعرض نظرية دجيلاس حول المسألة الثانية التي اشرناها آنفا، وهي المتعلقة بـ : لماذا قامت الاشتراكية في بلد متخلف كروسيا ، بعد ان اوردنا راى كل من لينين وستراتشي في موضوع المسألة الاولى، وهي لماذا لم تقم الاشتراكية في البلدان الاوربية المتقدمة، ولماذا لم تلق الراسمالية مصيرها المحتوم الذي رسمه لها ماركس.

التصنيع والاشتراكية

عقد دجيلاس في كتابة « الطبقة الجديدة المسيرة » فصلا تحت عنوان « خصائص ثورة » حلل فيها بايجاز الاسباب التي ادت الى قيام الثورة في بلد متخلف كروسيا القيصرية. خلافا لما توقعه ماركس ، ويمكن تلخيص نظرية دجيلاس في عبارة واحدة هي : عجز البورجوازية المحلية في البلد المتخلف من انجاز الثورة الصناعية امام ضغط ضرورة التصنيع. فلقد تخلفت روسيا القيصرية من ركب الثورة الصناعية ، وهي البلد الاوربي الوحيد تقريبا الذي لم « يحضر » عهد النهضة

Digital © Al-Kalimah

والاصلاح . ورغم أن البروليتاريا الروسية قد حققت تقدما وازدهارا فى بعض المؤسسات الاقتصادية الاساسية ، فان روسيا قد بقيت ترزح تحت نظام شبه اقطاعى وتحت نظام ملكية مطلقة وبيروقراطية مركزة، وهكذا لم يقدر لروسيا أن تستيقظ من سباتها حتى وجدت نفسها فريسة للرأسمالية الحديثة وتحت قبضة الابناك الاجنبية الكبرى.

اما الراسمالية المحلية فلم تكن قادرة على القيام بأى عمل ، بل انها لم تكن الا اداة وذيلا للراسمالية الاجنبية. وهكذا لم يكن من الممكن ان تقوم البورجوازية الروسية بمهام الثورة الصناعية، بل بالعكس من ذلك فان البروليتاريا التى اوجدها الفقر المتزايد فى وسط الفلاحين، هى وحدها التى كانت تتوقف حياتها على الثورة الصناعية، وهى وحدها التى كان فى امكانها القيام بهذه الثورة.

وهكذا ايضا لم يكن من الميسور فى روسيا اتباع الطريق التقليدى نحو الثورة الصناعية، طريق نمو النظام الراسمالى، فكان لا بد سلوك طريق آخر ، هو الثورة البروليتارية .

ان **الحاجة الى التصنيع هى التى كانت** — فى نظر دجيلاس — **الدافع الاساسى لقيام الثورة فى البلدان المتخلفة كروسيا، ولم نجد هذه البلدان الا الاحزاب الشيوعية كمعبرة عن حاجتها، وهذا ما مكن تلك الاحزاب من الوصول الى الحكم لتقوم بدور البورجوازية التى فشلت فى القيام به. ففى روسيا لم يكن فى امكان اى حزب ان ينجح ما لم يقرن كفاحه ضد الراسمالية بعزمه على القيام بمهام احداث الثورة الصناعية .**

ويلخص دجيلاس رايه بهذا الصدد فى هذه الفقرة « .. مهما كان الامر ، ففى بلدان اروبا الشرقية فرضت الاشتراكية نفسها : فرضت نفسها **ايديولوجيا** كشعار والتزام وكعقيدة ، وكمثل اعلى ، وفرضته نفسها **عمليا** كشكل خاص من الحكم ومن الملكية يمكن من انجاز

Digital © Al-Kalimah

الثورة الصناعية ويجعل من الممكن قيام انتاج أكثر اعتمادا على العقل والعلم، واوسع مجالا. »(1)

عـــــود عـلـى بـــــدء

اعتقد اننا، في هذه المرحلة من هذه الدراسة، قد بدأنا نتدرج نحو أهم القضايا في الفكر الماركسي المعاصر، وهي قضايا ثورة البروليتاريا وتطور النظام الراسمالي .

فانظومة ماركس وانجلز، التي تقوم على اساس أن الثورة الاشتراكية لا يمكن ان تقوم الا في وضع تكون فيه قوى الانتاج لا تتلاءم مع علاقات الانتاج السائدة، في وضع تتقدم فيه الصناعة تقدما واسعا، ويزداد فيه استغلال الطبقة العاملة بشكل اكثر فظاعة، مما يجعل العمال يسقطون اكثر فأكثر في هاوية البؤس المطرد، والتي تقوم كذلك، على اساس تفاقم تناقضات النظام الاقتصادي الراسمالي، تفاقما ليس له من مصير غير الانفجار ..

ان هذه الانظومة ، لم تعد تتلاءم في الوقت الراهن مع معطيات الواقع الجديد، واقع «الراسمالية المعاصرة» حسب تعبير جسون ستراتشي .. ولقد حاول لينين ، ببراعة وقوة، تدارك الموقف استنادا الى الواقع الراسمالي الجديد، فبرر بشكل منطقي العوامل التي أدت الى تأخير قيام الثورة البروليتارية في البلدان الاوروبية المتقدمة، اي العوامل التي مكنت الراسمالية من الدفاع عن نفسها ضد تناقضاتها، وتمديد أجل انهيارها .. ان ما يخلص اليه لينين هو ان الاستعمار هو آخر مرحلة من مراحل الراسمالية ؟.

ولكن مع ذلك تبقى عدة اسئلة تطرح نفسها ! ماذا بعد « آخر مرحلة من الراسمالية ؟ وكيف يتم الانتقال الى الفصل الجديد من المسرحية ؟. نعم لقد وضع لينين نظرية الثورة الاشتراكية ببراعة ودقة، ولكن الا يمكن القول ان نظريته تلك انما هي « التعبير النظري عـــن

---

(1) ـ دجيلاس .. « الطبقة الجديدة المنيرة » . ص 23 ، الطبعة الفرنسيـــة .

Digital © Al-Kalimah

النشاط العملي » السائد في حياة لينين ، خصوصا في ايام ثورة اكتوبر؟ واذا كان الامر كذلك ، هل يمكن تعميم تلك النظرية على سائر البلدان حتى تصبح قانونا للثورة ؟ وهل من الواجب ان تنتظر البروليتاريا ، توفر شروط الوضع الثوري التي خططها لينين، حتى تقوم بثورتها ؟

اما بخصوص نظرية ستراتشي التي تتلخص فيما يسميه بالضغط الديمقراطي فانها تطرح هي كذلك اسئلة شتى ؟ ان ستراتشي قد اقتصر، او على الاقل، اكد ، على « العوامل الداخلية لتطور الرأسمالية، متجاهلا « العوامل الخارجيه »: الاستعمار ، الضغط الذي مارسته قيام المعسكر الاشتراكي على المعسكر الرأسمالي .. الخ .. الخ..

ان ستراتشي ينتهي الى نتيجة ان الديمقراطية ستقضي في النهاية على الرأسمالية .. ولكن بوسعنا ان نتساءل : كيف يتم ذلك ؟ وهل يمكن اتخاذ بريطانيا ذات التقاليد الديمقراطية العريقة، كمقياس عام، نحكم بمقتضاه على سائر البلدان الاخرى ؟ ثم ايضا ، ماذا بعد « قضاء الديمقراطية على الرأسمالية » ؟

وتفسير دجيلاس لاسباب قيام الثورة الاشتراكية في بلد متخلف كروسيا ، استنادا الى ما دعاه : « الحاجة الى التصنيع » تفسير طريف ، ولكنه تفسير وحيد الجانب ! ان الحاجة الى التصنيع قائمة اليوم بشكل أكثر الحاحا في اكثر من ثلثي بلدان العالم، فهل يمكن ان ننتظر ثورات اشتراكية عاجلة لان الحاجة الى التصنيع في هذه البلدان هي اليوم اشد ما تكون الحاحا ؟ ! ثم ان بورجوازية روسيا عام 1917 لم تكن الوحيدة في العالم التي عجزت عن القيام بمهام الثورة الصناعية ، فلماذا اذن لم تقم ثورات مماثلة في انحاء اخرى من العالم حينذاك ؟! ثم ان دجيلاس يتغافل عن نقطة مهمة ، وهي تتعلق بالبلدان الصناعية المتطورة التي تمت فيها الثورة الصناعية ؟ هل يمكن ان نقول ان الثورة الاشتراكية في هذه البلدان غير ذات موضوع لانه سبق ان قامت البورجوازية الاروبية بمهمتها في تصنيع بلدانها ؟

ان القضايا التي تثيرها هذه الاسئلة هي ما يشكل موضوع مقالنا المقبل.

محمد عابد الجابري

Digital © Al-Kalimah

محمد ابراهيم بوعلو

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

(اقصوصة)

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..
وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..
وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

واقلق زوجته بجانبه، فاستدارت الى الجهة الاخرى.. لقد كانت بها رغبة شديدة فى النوم، سيما وان نهارها كان مملوءاً، وان ليلة الامس قضتها بجانب طفلها من غير ان تذوق للنوم طعمه ومع انها استدارت الى الجهة الاخرى فلقد عاد الى سمعها:

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..
وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..
وان..

Digital © Al-Kalimah

والقت الغطاء على راسها ايضا، تبعد به عنها سماع هذه اللغة الجديدة التى الح زوجها على تعلمها مع انه تجاوز الاربعين.. لقد استهزأت منه فى اول الامر، وذكرته بالمثل الشعبى : « القرد المسن لا يستطيع تعلم الرقص » ولكنه رد عليها فى عناد بانه ليس قردا.. ثم ان القردة لا تتكلم، والا لكان فى استطاعتها ان تتعلم هذه اللغة :

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

« تراها ماذا تعنى هذه الكلمات المصوغة .. ؟ » لقد حفظتها بالرغم منها.. واخذت تعيدها معه، المرة تلو الاخرى، حتى بدا لها انه من الممكن ان تتعلم هى الاخرى هذه اللغة الجديدة ..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

ما اسهل هذه اللغة وابعدت عن راسها الغطاء .. وتطلعت الى زوجها والكتاب بين يديه ..

فور.. فايف..

وقاطعته هى بقولها :

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

ولم يقل لها شيئا بل استمر فى قراءته :

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وعندما لم يبد لها اى راى فيما اظهرته من سرعة فى الحفظ استدارت من جديد الى الجهة الاخرى، وهى تحاول ان تستدعى الى جفنيها النوم، رغم الضوء الذى يعاكسها وصوته الاجش :

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

Digital © Al-Kalimah

.. وضعت اصبعها فى فتحة اذنها.. ولكن مع ذلك كان صوت زوجها الخشن يجد سبيله الى اذنها.. فكرت من جديد فى ان تطلب منه أن يتركها تنام ، ولكنها باعدت عنها الفكرة ، فلكى يخرجوا من هذه الضائقة التى يعيشون فيها لابد من وسيلة ، ولعل الوسيلة التى اقتنع بها زوجها ستبعد عنهم الفقر ، وسينام بعد ذلك نوما عميقا.. اما الان ، فلا بأس من تضحية . انها محظوظة ما دام زوجها رجل نشيط، ويمكنه أن يقوم بأى شىء من اجل راحتها وراحة ابنائها.. وان كان حظه كحظ اخيها ما زال فى السماء ، ولعل « وان.. تو.. ثرى.. » ستعمل على انزاله الى الارض.. وبذلك لن يظلوا فى هذه الحجرة الضيقة التى يتراكمون فيها كسردين فى علبة ..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

لم يتركها تتخيل الحالة التى سيغدون فيها وتسبح فى حلم جميل يوم يتوفر لزوجها عمل آخر ، بل أخذ يتلعثم ، هذه المرة ، فى ترديد الكلمات ..

وان.. تو.. تو.. تو..

ثرى.. فور.. فور..

واستدارت نحوه فوجدته قد اغلق الكتاب ورفع رأسه الى السقف وهو يردد الكلمات محاولا ان يستظهرها ..

واستبشرت خيرا.. لعلها ستنام قريبا بعد أن يتم له استظهار كلماته المضوغة.. بيد أنه عندما أخفق عدة مرات أعاد فتح كتابه من جديد..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وان.. تو.. ثرى.. فور.. فايف..

وأخذت نفسا طويلا أخرجته من اعماقها.. ليتهم سمحوا لها بان تحفظ هذه الكلمات بدل زوجها فلا شك انها كانت ستستظهرها فى اسرع وقت وان تو ثرى فور فايف ، ولكنهم لن يفعلوا، لان زوجها

Digital © Al-Kalimah

وحده من يستطيع العمل مع أصحاب هذه اللغة الجديدة الذين يقال عنهم انهم سيأتون الى هنا بأموالهم الكثيرة، وسيشغلون معهم زوجها في التليفون ..

« — آلو.. آلو.. وان، تو، ثري، فور، فايف؟

— آلو.. نعم.. وان، تو، ثري، فور، فايف.. »

وان.. تو.. ثري.. فور.. فايف..

وأخذت ترن في اذنها بصورة لم تستطع معها الا ان تطلب منه :

— « اما آن لك إن تنام .. اترك ذلك الى صباح الغد... »

— وان .. تو.. ثري.. فور.. فايف ..

— انها تنتظرني اشغال كثيرة نهار الغد، وان لم استرح فانني لست أدري كيف ستصبح عليها صحتي ..

— وان تو .. ثري .. فور .. فايف ..

— ما اقسى قلبك .. !

— وان.. تو.. ثري.. فور.. فايف..

وتدثرت بالغطاء، وهي تزمجر .. واستمر هو في حنظه .. وان .. تو.. ثري.. فور.. فايف..

وتمسكت بالصبر .. بيد انها لم تستطع أن تتحمل أكثر ، ففي ثورة وغضب ، قامت وانتزعت منه كتابه ، وأخذت تمزقه بين يديها وهي تقول عند كل تمزيق ..

وان — تو — ثري — فور — فايف — وبذلك مزقت كل أمل في انزال حظهما من السماء .

واشتد خصامهما، واجتمع حولهما كل الجيران.. وعندما اعادوا الامور الى نصابها ، ناما في فراشهما الوحيد وقد أدارا ظهريهما لبعضهما، وما تزال ترن في آذانهما :

وان.. تو.. ثري.. فور.. فايف..

14 ابريل 1966